الحب في زمن الكوليرا

جابرييل غارسيا ماركيز
الحائز على جائزة نوبل للآداب



قدماً تمضي هذه الأماكن:
إذ صار لها ربة متوجة

لا مناص: فرائحة اللوز المر كانت تذكره دوما بمصير الغراميات غير المواتية. ذلك ما ادركه الدكتور خوفينال اوربينو منذ دخوله البيت الذي ما زال غارقا في الظلام، إذ حضر على عجل للاهتمام بحالة لم تعد مستعجلة بالنسبة له منذ سنوات عديدة، فاللاجىء الانتيلي جيرميا دي سانت - آمور. مشوه الحرب، ومصور الأطفال، واكثر خصومه رأفة في لعبة الشطرنج، قد تخلص من عذابات الذكرى باستنشاقه ابخرة سيانور الذهب.

وجد الجثة مغطاة بشرشف فوق السرير الضيق، حيث كان ينام عادة، وبجواره كرسي صغير عليه الطشت المستخدم في تبخير السم. وكان يقبع على الارض، مقيدا بقائمة السرير، جسد كلب دانمركي ضخم، اسود اللون، تغطي صدره بقع بلون الثلج، والى جانبه العكازان. الحجرة الخانقة ذات الألوان المتنافرة، التي كانت تستخدم كحجرة نوم ومخبر تصوير في الوقت ذاته، اضيئت قليلا ببريق الفجر المنسل من النافذة المفتوحة، لكنه كان ضوءا كافيا للاعتراف الفوري بسلطة الموت فقط. كانت النوافذ الاخرى، وكذلك جميع كوى الحجرة، مسدودة بخرق قماشية او مختومة بورق مقوى اسود اللون، مما ضاعف من كثافة ضيقها. وكانت هناك طاولة تحتشد بزجاجات وقنان بلا لصاقات، وطشتين من التوتياء مقشري الطلاء، تحت مصباح عادي مغلف بورق أحمر. أما الطشت الثالث، الخاص بالسائل المثبت، فهو الموجود الى جانب الجثة، كانت هنالك مجلات وصحف قديمة في كل الانحاء، واكداس من مسودات الصور الفوتوغرافية في اطر زجاجية، واثاث مخلع، لكنه محفوظ كله من الغبار بقدرة يد نشيطة، ومع ان هواء النافذة كان قد نقى الجو، الا انه بقي لمن هو قادر على التمييز قبس فاتر من الغراميات الكئيبة لحبات اللوز المرة، كان الدكتور خوفينال اوربينو قد فكر اكثر من مرة، دون حماس مسبق، بان تلك الحجرة ليست بالمكان المناسب للموت في رحمة الله، لكنه انتهى مع مرور الوقت إلى الافتراض بان فوضى المكان هذه ربما

هي استجابة لالهام محدد من جانب العناية الالهية .

كان مفوض شرطة قد سبقه مع طالب طب شاب يتمرن للتخصص في الطب الشرعي في المستوصف البلدي، وهما من قام بتهوية الحجرة وتغطية الجثة ريثما يأتي الدكتور اوربينو. كلاهما صافحه بمهابة فيها من المواساة هذه المرة اكثر مما فيها من التوقير، فلا احد يجهل درجة الصداقة التي كانت تربطه بجيرميا دي سانت ـ آمور. شد المعلم الشهير على يد كل منهما، كما هي عادته دائما بمصافحة كل واحد من تلاميذه قبل بدء درسه اليومي في الطب العام، ثم رفع طرف شرشف السرير برأس ابهامه وسبابته، كما لو كان زهرة، وكشف عن الجثة شبرا فشبرا برصانة قدسية. كان الميت عاريا تماما، متيبسا ومعوجا، عيناه مفتوحتان وجسده ازرق، وبدا كأنه كبر خمسين عاما عما كان عليه في الليلة الماضية، كانت حدقتاه صافيتين، وشعر رأسه وذقنه ضارب الى الاصفرار، وعلى عرض بطنه أثر جرح قديم مندمل مخيط بغرز معقودة. وكانت لصدره وذراعيه ضخامة صدر وذراعي مجذف سفينة، وذلك للجهد الذي عليه اداءه باستخدام العكازين. أما ساقاه الخامدتان فبدتا كساقي يتيم. تأمله الدكتور خوفينال اوربينو للحظة بقلب يعاني ألما قلما عانى مثله خلال سنوات حربه الطويلة العقيمة ضد الموت. وقال له:

ـ ايها الجبان. الأسوأ كان قد انقضى.

ثم أعاد تغطيته بالشرشف واستعاد وقاره الاكاديمي. كان قد احتفل في العام الماضي بعيد ميلاده الثمانين في احتفال رسمي دام ثلاثة ايام، وفي كلمة الشكر التي ألقاها رفض مجددا اغراء التقاعد بقوله: «سيكون لدي متسع للراحة عندما اموت، وحتى هذا الاحتمال ليس ضمن مشاريعي في الوقت الراهن». بالرغم من ان سمع اذنه اليسرى كان يضعف اكثر فأكثر، ورغم انه كان يستند على عكاز ذي قبضة فضية ليخفي تعثر خطواته، فقد تابع الظهور بالمظهر الذي كان عليه في سنوات شبابه، ببدلة كاملة من الكتان مع صدرية تقطعها سلسلة ساعة ذهبية، ولحية كلحية باستور، ذات لون صدفي، وشعر له اللون ذاته، مصفف مع فرق متقن في الوسط، وكانت هذه الأمور تعبيرا امينا عن طبعه. اما تآكل الذاكرة الذي كان يقلقه اكثر فأكثر، فكان يعوضه قدر الامكان بكتابة ملاحظات سريعة على قصاصات متفرقة، ما تلبث ان تختلط في كل جيوبه، كما تختلط الادوات، وزجاجات الدواء، واشياء اخرى كثيرة في حقيبته المتخمة. لم يكن اكبر الاطباء سنا واشهرهم في المدينة حسب، بل والرجل الاكثر تجملا فيها. ومع ذلك، فان حكمته البينة وطريقته التي لا يمكن اعتبارها ساذجة في ادارة سلطة اسمه جعلت عدد اتباعه اقل مما يستحق.

كانت تعليماته للمفوض والطبيب المتمرن محددة وسريعة: يجب عدم اجراء التشريح

برائحة البيت كافية لتقرير ان سبب الوفاة هو استنشاق السيانور المتفاعل في طشت مع حامض من احماض التصوير، ولقد كان جيرميا دي سانت ـ أمور يعرف هذه المواد جيدا، بحيث لا يمكن ان يكون قد فعل ذلك سهوا. وامام استفسار من المفوض، اوقفه الدكتور بطعنة تقليدية هي احدى حركاته المعتادة: «لا تنس اني انا من سيوقع على شهادة الوفاة». اصابت خيبة الامل الطبيب الشاب: فهو لم يحظ يوما بدراسة تأثيرات سيانور الذهب على جثة. وقد فوجىء الدكتور خوفينال اوربينو بان الشاب لم ير ذلك في مدرسة الطب، لكنه فهم الامر فورا بسبب خجل الشاب السريع ولهجته الانديزية. وربما هو حديث الوصول الى المدينة. فقال له: «لن تعدم هنا وجود مجنون في الحب يمنحك الفرصة في يوم من هذه الايام»، وعندما انتهى من الحديث فقط، ادرك انه بين عدد لا حصر له من المنتحرين الذين يذكرهم، كان ذاك هو اول منتحر بالسيانور ليست تعاسة الحب هي السبب في انتحاره، عندها طرأ تبدل ما على نبرة صوته المعتادة.

قال للمتمرن:

ـ عندما تجده، دقق جيدا. اذ يوجد رمل في قلوبهم عادة.

ثم تحدث الى المفوض كما لو كان يتحدث الى احد مرؤوسيه. امره بتجنب اية التماسات كي يتم الدفن في مساء ذلك اليوم بالذات، وبأقصى درجات التكتم. قال: «انا سأكلم العمدة فيما بعد». كان يعلم ان جيرميا دي سانت ـ آمور قد عاش حياة تقشف بدائي، وانه كان يكسب بفنه اكثر مما يلزمه للعيش بكثير، مما يستوجب وجود مال يزيد عن تكاليف الدفن في أحد الادراج.

ـ اذا لم تجدوا المال فلا تهتموا. سأتولى انا تكاليف الدفن.

وأمر باعلام الصحف ان المصور قد توفي وفاة طبيعية، رغم انه فكر بان الخبر لن يهمهم باي حال. قال: «اذا اقتضى الأمر، فسأكلم الحاكم». المفوض، الذي كان موظفا جديا وذليلا، كان يعرف ان صرامة الاستاذ المتمدن تثير حفيظة اقرب أصدقائه اليه، وكان مشدوها للسهولة التي يقفز بها فوق الاجراءات القانونية للاسراع في الدفن، والشيء الوحيد الذي لم يقتحمه هو مسألة التحدث الى الاسقف ليسمح بدفن جيرميا دي سانت ـ آمور في مقبرة المؤمنين. وحاول المفوض، المستاء من سفاهة ذاته، ان يعتذر، فقال:

ـ ما اعرفه هو ان هذا الرجل كان قديسا

وقال الدكتور اوربينو:

ـ بل هو شيء اشد غرابة: انه قديس ملحد. لكن هذا من شؤون الرب. بعيدا، في الجانب الآخر من المدينة الاستعمارية، سمعت نواقيس الكتدرائية تدعو الى القداس

الكبير. فوضع الدكتور اوربينو نظارته ذات القوس والاطار الذهبي على عينيه، ونظر الى ساعة السلسلة، المربعة الرقيقة، التي يفتح غطاؤها بنابض، انه يوشك ان يتخلف عن موعد صلاة العنصرة.

كان في الصالة آلة تصوير ضخمة على عجلات كتلك التي في الحدائق العامة، وستارة عليها رسم يمثل منظر شفق بحري، وكانت الجدران مغطاة بصور اطفال عليها تواريخ تذكارية: ذكرى المشاركة الاولى، التنكر بقناع ارنب، عيد الميلاد السعيد، لقد رأى الدكتور اوربينو هذه الجدران وهي تتغطى تدريجيا، سنة بعد اخرى، اثناء تأمله المتروي في امسيات الشطرنج، وكان قد فكر في احيان كثيرة، مع اختلاجة كآبة، بأن في معرض صور المصادفة هذا توجد نواة مدينة المستقبل، التي ستساس وتفسد على يد هؤلاء الاطفال المجهولين، والتي لن يبقى فيها حتى رماد مجده.

على طاولة العمل، إلى جانب علبة فيها عدة غلايين محفور عليها رسوم ذئاب بحر، كانت رقعة الشطرنج وعليها دور غير مكتمل. ورغم تعجله واكتئابه، لم يستطع الدكتور اوربينو مقاومة اغراء دراستها. كان يعلم انها لعبة الليلة الماضية، فقد كان جيرميا دي سانت ـ آمور يلعب مساء كل يوم من ايام الاسبوع، ومع ثلاثة خصوم مختلفين على الاقل، لكنه كان يصل دائما الى نهاية اللعب ثم يضع الرقعة مع الاحجار في علبتها، ويضع العلبة في احد ادراج المكتب. وكان يلعب بالاحجار البيضاء دوما، ولم يكن هنالك من شك في انه كان سيخسر تلك اللعبة بعد اربع حركات اخرى دون مفر. وقال لنفسه: «لو كان ثمة جريمة، لكان هذا دليلا جيدا. فانا لا اعرف سوى شخص واحد قادر على نصب مثل هذا الكمين المتقن». ما كان بمقدوره العيش دون ان يبحث فيما بعد عن السبب الذي جعل ذلك الجندي الجامح، المعتاد على الصراع حتى اخر قطرة دم، يتخلى عن المعركة الاخيرة في حياته دون حسمها.

في الساعة السادسة صباحا، وفيما الحارس الليلي يقوم بجولته الاخيرة، رأى الورقة المثبتة على الباب الخارجي: ادخل دون طرق الباب واتصل بالشرطة. بعد ذلك بقليل هرع مفوض الشرطة مع طالب الطب المتمرن، وقاما كلاهما بتفتيش البيت بحثا عن دليل ضد رائحة اللوز المر التي لا يمكن اخفاؤها. واثناء الدقائق القليلة التي استغرقتها دراسة دور الشطرنج غير المنتهي، اكتشف المفوض بين الاوراق التي على المكتب مغلفا موجها الى الدكتور خوفينال اوربينو، مختوما بعدة اختام من الشمع الاحمر، مما جعل تمزيقه ضروريا لاخراج الرسالة منه. ازاح الطبيب الستارة السوداء عن النافذة ليحصل على انارة افضل، ثم القى اول الامر نظرة سريعة على الاحدى عشرة ورقة المكتوبة بخط انيق على الوجهين،

ومذ قرأ الفقرة الاولى ادرك انه قد تخلف عن صلاة العنصرة. قرأ بنفس مضطرب، عائدا الى ما قرأه في عدة صفحات ليمسك مجددا بالخيط المفقود، وعندما انتهى، بدا وكأنه يرجع من مكان قصي وزمان سحيق. كان همود باديا، رغم اجتهاده للحيلولة دون ذلك: كانت شفتاه بلون الجثة الازرق ذاته، ولم يستطع السيطرة على ارتجاف اصابعه عندما اعاد طي الرسالة واودعها جيب صدريته. عندئذ تذكر وجود مفوض الشرطة والطبيب الشاب، فابتسم لهما من خلال غلالة الاسى وقال:

ـ لا شيء يستحق الذكر. انها تعليماته الاخيرة.

كان هذا نصف الحقيقة، لكنهما اعتقدا انها الحقيقة الكاملة، لانه امرهما بانتزاع بلا... مخلخلة في الارضية، حيث وجدا دفتر حسابات مستعملا كثيرا، وفيه كانت رموز فتح صندوق الخزنة، لم تكن هناك نقود كثيرة كما توهموا، لكن ما وجدوه كان يزيد عن تكاليف الدفن وتسديد التزامات اخرى ضئيلة الشأن. كان الدكتور اوربينو مدركا حينئذ انه لن يتمكن من الوصول الى الكتدرائية قبل القداس. فقال:

ـ انها المرة الثالثة التي اتخلف فيها عن قداس الاحد، مذ بلغت سن الرشد. لكن الله يتفهم.

وهكذا فضل البقاء بضع دقائق اخرى ليحل جميع التفاصيل، رغم انه لم يكن قادرا على احتمال شوقه لاطلاع زوجته على مضمون الرسالة. وعد بان يخبر لاجئي الكاريبي الكثيرين الذين يعيشون في المدينة، كي يحضروا ان كانوا يودون تقديم تكريمهم الأخير للاجىء الذي كان الاكثر احتراما في سلوكه، والاكثر فعالية وجدية، حتى بعد ان تبين بجلاء سقوطه في احابيل خيبة الامل. وسيخبر ايضا زملاءه لاعبي الشطرنج، الذين كانوا يتفاوتون من مهنيين مشهورين وحتى عمال بلا اسم، اضافة الى اصدقاء آخرين اقل مواظبة، لكنهم ربما يودون حضور الجنازة. قبل ان يعرف بامر رسالة الموت، كان قد قرر ان يكون اول الحاضرين، لكنه بعد قراءتها لم يعد متأكدا من شيء. انما سيبعث على اية حال أكليل ياسمين، فربما يكون جيرميا دي سانت ـ آمور قد عانى لحظة اخيرة من الندم. سيتم الدفن في الخامسة، فهي الساعة المناسبة في شهور الحر الشديد. واذا ما احتاجوه لشيء فسيجدونه منذ الساعة الثانية عشرة في البيت الريفي الخاص بالدكتور لاثيديس اوليفيلا، تلميذه النجيب، الذي سيقيم في ذلك اليوم وليمة غداء احتفالا بيوبيله الفضي في المهنة.

كان للدكتور خوفينال اوربينو نمط بسيط من العادات يتبعها منذ انقضت سنوات السلاح المضطربة الاولى، واحرز لنفسه مكانة وسمعة لا مثيل لهما في كل المقاطعة. كان يستيقظ مع الديوك الاولى، ويبدأ في هذه الساعة بتناول ادويته السرية: برومور البوتاسيوم

لبعث النشاط، وملح السليسين لآلام العظام في أيام المطر، وطحالب السلت للاغماء، وحشيشة البلادونا للنوم الهادىء. كان يتناول شيئا في كل ساعة، ودائما في الخفاء، لانه في حياته الطويلة كطبيب واستاذ كان دوما ضد اعطاء الوصفات المخففة لآلام الشيخوخة: كان احتمال آلام الآخرين أسهل عليه من احتمال آلامه. وكان يحمل في جيبه دائما وسادة مشبعة بالكافور يستنشقها بعمق حين لا يكون ثمة من يراه، لينتزع عن نفسه الخوف من كل هذه الادوية المختلطة.

كان يبقى في مكتبه مدة ساعة، لتحضير درس الطب العام الذي واظب على القائه في مدرسة الطب كل يوم من ايام الاسبوع، من الاثنين الى السبت، في الساعة الثامنة تماما، حتى اليوم الذي سبق موته. كما كان قارئا مطلعا على المستجدات الادبية التي يزوده بها بالبريد المكتبي الذي يتعامل معه في باريس، اوتلك التي يوصي له عليها من برشلونة وكيله المكتبي المحلي، رغم انه لم يكن يتابع آداب اللغة الاسبانية بنفس الاهتمام الذي يتابع به الأدب الفرنسي، ولم يكن على اي حال يقرأ تلك الكتب ابدا في الصباح، وانما لساعة بعد القيلولة، وفي الليل قبل ان ينام. اما بعد الانتهاء من تحضير الدرس في المكتب، فكان يمارس تمرينات التنفس لمدة ربع ساعة في الحمام، مقابل النافذة المفتوحة، متنفسا دوما باتجاه الجهة التي تصدح منها الديكة، حيث الهواء النقي هناك. بعد ذلك يستحم، ويشذب لحيته ويصمغ شاربه بمستحضر مشبع بكولونيا فارينا غيغنير الاصلية، ثم يلبس بدلة الكتان البيضاء مع صدرية وقبعة لينة، وحذاء من جلد الماعز. انه يحتفظ وهو في الثمانين من العمر بالتقاليد البسيطة والروح الاحتفالية التي رجع بها من باريس، بعد جائحة داء الكوليرا الكبرى بقليل. وما زال شعره المسرح جيدا مع فرق في الوسط كما كان في شبابه، لولا اللون المعدني الذي طرأ عليه. كان يتناول فطوره مع العائلة عادة، لكنه يتبع ريجيما خاصا: يتناول شراب زهر الافسنتين، لراحة المعدة، ورأس ثوم يقوم بتقشير فصوصه واحدا واحدا يمضغها بتمهل مع قطعة خبز، وذلك لتفادي احتشاءات القلب، ونادرا ما يكون متحررا بعد درسه اليومي من التزام مرتبط بمبادراته التمدنية، أو التزامه الكاثوليكي، او بابتكاراته الفنية والاجتماعية.

كان يتناول الغداء في بيته دوما، ثم ينام قيلولة من عشر دقائق وهو جالس على منصة الفناء، مستمعا في نومه الى اغنيات الخادمات تحت اشجار المانغا، ومصغيا الى نداءات الباعة في الشارع، وصخب المحركات في الميناء، الذي تفوح روائحه مرفرفة في جو البيت في الامسيات الحارة كانها ملاك محكوم بالتعفن. ثم يقرأ بعد ذلك لمدة ساعة في الكتب الجديدة

للببغاء الداجنة التي صارت منذ سنوات محطا للاعجاب المحلي. وفي الساعة الرابعة يخرج لعيادة مرضاه، بعد ان يتناول ابريقا كبيرا من الليموناذة مع الثلج. ورغم تقدمه في السن، كان يرفض استقبال مرضاه في العيادة، ويصر على مواصلة علاجهم في بيوتهم، كما فعل ذلك دائما، مذ كانت المدينة محدودة يمكن الذهاب الى اي مكان فيها مشيا على الاقدام.

عندما جاء من اوروبا لاول مرة، كان يستخدم عربة الخيول الخاصة بالعائلة، وا في يقودها حصانان اشقران ذهبيان، وحين لم تعد هذه العربة صالحة للاستعمال، استبدلها بعربة من نوع فيكتوريا يقودها حصان واحد، واستمر في استخدامها على الدوام مع ابداء بعض الازدراء للموضة، عندما اخذت العربات بالاختفاء من الدنيا والعربات الوحيدة التي بقيت في المدينة كانت تستخدم لنزهة السياح ولحمل الاكاليل في الجنازات فقط. ومع انه كان يرفض الاعتزال، فقد كان مدركا انهم لا يستدعونه الا لمعالجة حالات ميؤوس منها، لكنه كان يرى في ذلك ايضا نوعا من التخصص، كان قادرا على معرفة ما يعانيه المريض من مظهره فقط، وكان يفقد ثقته اكثر فأكثر في الادوية المرخصة وينظر بذعر الى تعميم الجراحة، ويقول: «ان المبضع هو اكبر دليل على فشل الطب». وكان يفكر ان كل دواء اذا ما رأيناه بمقياس دقيق هو سم، وان سبعين بالمئة من الاطعمة العادية تعجل في الموت. وقد اعتاد ان يقول في درسه: «الادوية القليلة المعروفة على اي حال، لا يعرفها الا بعض الاطباء». وانتقل من حماسة الشباب الى موقع كان هو نفسه يعرفه على انه موقع انساني جبري: «كل امرىء هو سيد موته، والشيء الوحيد الذي بالامكان عمله عندما تحين الساعة، هو مساعدته على الموت دون خوف او ألم». ورغم هذه الافكار المتطرفة، والتي كانت تشكل جزءا من الفلكلور الطبي المحلي، فان تلاميذه القدماء ما زالوا يستشيرونه حتى بعد ان اصبحوا اطباء راسخين في المهنة، اذ كانوا يعترفون له بتلك التي كانت تسمى حينئذ النظرة الطبية، ولقد كان دوما طبيبا غاليا واستثنائيا، وكان زبائنه يسكنون البيوت الفاخرة في حي الفيريس.

كان يقوم بجولة منهجية منتظمة لدرجة ان زوجته كانت تعرف الى اين تبعث في طلبه اذا ما طرأ شيء مستعجل خلال جولته المسائية. وفي شبابه كان يتأخر في مقهى الباروكية قبل ان يرجع الى البيت، وهكذا اتقن لعب الشطرنج مع شركاء حماه ومع بعض لاجئي الكاريبي، لكنه منذ مطلع القرن لم يعد الى مقهى الباروكية وحاول تنظيم دوري وطني في الشطرنج تحت رعاية النادي الاجتماعي. وكان في هذه الفترة ان جاء جيرميا دي سانت- آمور، بركبتيه الميتتين وبلا مهنة تصوير الاطفال في ذلك الحين، وقبل انقضاء ثلاثة اشهر كان معروفا لكل من يحسن تحريك فيل على رقعة شطرنج، لان احدا لم يتمكن من كسب جولة منه. لقد كان

بالنسبة للدكتور خوفينال اوربينو لقاء معجزة، في وقت اصبحت لعبة الشطرنج لديه هوى لا حدود له ولم يعد هناك خصوم كثيرون يشبعون رغبته في اللعب.

وبفضله، امكن لجيرميا دي سانت - آمور ان يصبح ما آل اليه بيننا. لقد اصبح الدكتور اوربينو حاميه اللامشروط، وكفيله في كل شيء، حتى دون ان يتكلف مشقة التقصي عمن هو، او عما يفعله، او من اية حرب بلا امجاد جاء بتلك الحالة من العجز والعطل. ثم اقرضه اخيرا المال لاقامة محل التصوير، هذا المال الذي سدده جيرميا دي سانت - آمور بصرامة حبال، حتى آخر كواريتو، مذ صور أول طفل مرتعد من بريق المغنيزيوم.

كل ذلك كان بسبب الشطرنج. كانا يلعبان اول الامر في الساعة السابعة ليلا، بعد العشاء وكان في ذلك منفعة اكيدة للطبيب بفعل التفوق البارز للخصم؛ ولكن المنفعة اخذت تتناقص في كل مرة، الى ان تساويا. وفيما بعد، حين افتتح دون غاليليو داكونتي اول فناء سينما، واصبح جيرميا دي سانت - آمور واحدا من الزبائن المداومين، اقتصر لعب الشطرنج على الليالي التي لا تعرض فيها افلام جديدة. وكان قد اصبح صديقا حميما للطبيب في ذلك الحين، فكان هذا يرافقه الى السينما، انما بدون زوجته دوما، ذلك انها لا تطيق متابعة خيط القصص المعقدة من جهة، ولان جيرميا دي سانت - امور بدا لها من جهة اخرى، وبحاسة الشم وحدها، انه ليس بالرفيق الصالح لاحد.

يومه المختلف كان يوم الاحد. ففيه يذهب لحضور القداس الكبير في الكتدرائية، ثم يعود الى البيت ويلبث هناك للراحة والقراءة على مصطبة الفناء. ونادرا ما كان يخرج لعيادة مريض في ايام اعتكافه، ما لم تكن الحاجة ماسة الى ذلك، ولم يعد يقبل منذ عدة سنوات اي التزام اجتماعي الا اذا كان اضطراريا. في يوم العنصرة ذاك، وبمصادفة استثنائية، وقعت حادثتان غريبتان: وفاة صديق والاحتفال باليوبيل الفضي لتلميذ بارز. ومع ذلك، فانه بدلا من العودة الى البيت دون تأخر، كما كان مقررا بعد ان ثبتت وفاة جيرميا دي سانت - آمور، ترك لنفسه ان تنقاد وراء الفضول.

ما ان صعد الى العربة حتى قام بمراجعة سريعة لرسالة الميت، ثم امر الحوذي بايصاله الى عنوان صعب في حي العبيد القديم. لقد كان ذلك القرار غريبا على عاداته، مما جعل الحوذي يرغب بالتأكد من انه لا يوجد ثمة خطأ. لم يكن هنالك من خطأ: العنوان كان واضحا، ومن كتبه لديه اسباب كافية لمعرفته جيدا. عندئذ عاد الدكتور اوربينو الى الصفحة الاولى، وغرق ثانية في ذلك المبورد من الاعترافات غير المرغوب فيها والتي بامكانها تغيير مجرى حياته، حتى وهو في هذه السن، اذا ما استطاع اقناع نفسه بانها ليست هذيان شخص يائس.

اخذ مزاج السماء يتبدل منذ الصباح الباكر، كان مغيما وباردا، انما لم تكن هناك مخاطر هطول مطر قبل منتصف النهار. وفي محاولة لايجاد طريق اقصر، دخل الحوذي في ازقة المدينة الاستعمارية المرصوفة بالحجارة، واضطر للتوقف مرات عديدة كي لا يجفل الحصان من فوضى طلبة المدارس والجماعات الدينية العائدة من قداس العنصرة. كانت في الشارع اكاليل مصنوعة من اوراق ملونة، وموسيقى وازهار، وفتيات يحملن مظلات ملونة ويلبسن كشاكش الموسلين ويتأملن مرور الاحتفال من الشرفات. وفي ساحة الكتدرائية، حيث لم يكن ممكنا تمييز تمثال بطل التحرير بين اشجار النخيل الافريقية واعمدة النور الجديدة ذات المصابيح الا بصعوبة، كان ازدحام السيارات على اشده بسبب الخروج من الصلاة. ولم يكن هناك موطىء قدم في مقهى الباروكية المحتشم والصاخب. كانت عربة الدكتور اوربينو هي عربة الخيول الوحيدة وكانت تتميز عن العربات الاخرى القليلة المتبقية في المدينة باحتفاظها الدائم ببريق غطائها الجلدي وباجزائها المعدنية المصنوعة من البرونز حتى لا يجعلها ملح البارود تتآكل، وكانت عجلاتها ودعائمها الخشبية مطلية باللون الاحمر مع خطوط ذهبية، كما هي العربات في ليالي الحفلات في اوبرا فينا. اضف الى ذلك ان اكثر العائلات حبا للمظاهر كانت تكتفي بان يكون قميص الحوذي في عرباتها نظيفا، بينما تابع هو مطالبة حوذي عربته بارتداء بدلة الحوذي المخملية الذاوية وقبعة مروضي السيرك، التي فضلا عن كونها زيا قديما مهجورا، كانت تنم عن تقليد غاشم في قيظ منطقة الكاريبي.

ورغم هوسه الجنوني بالمدينة، ومعرفته بها خيرا من سواه، فقليلا ما وجد الدكتور اوربينو سببا كسبب يوم الاحد ذاك للمغامرة دون تحفظ في فوضى حي العبيد. وقد اضطر الحوذي للقيام بالتفافات عديدة والسؤال مرات ومرات للوصول الى العنوان المقصود. لقد تعرف الدكتور اوربينو عن قرب على كآبة المستنقعات، وصمتها الممل، وفسوائها التي كريح الغرين، والتي كانت تصعد في فجر ايام كثيرة حتى تخدعه مختلطة برائحة ياسمين الفناء، وكان يحس بها تمر كما لو انها ريح اليوم الفائت وليس لها اي شأن في حياته. لكن تلك العفونة التي احتفظ منها بتصور مثالي بفعل الحنين تحولت الى واقع لا يطاق ما ان بدأت العربة تتقافز في وحل الشوارع، حيث تتنازع طيور الرخمة بقايا المسلخ التي يدفعها البحر الى مدخل الميناء. وعلى العكس من مدينة الفيريس، المبنية بيوتها من الحجر، كانت البيوت هنا مشادة من اخشاب كالحة وسقوف من التوتياء ومعظمها يستقر فوق دعائم خشبية للحيلولة دون تسرب مجاري التصريف المتعاظمة والمكشوفة، الموروثة عن الاسبان. كل شيء كان يبدو بائسا ومهجورا، لكن قصف موسيقى جوقة عنصرة الفقراء كان يخرج من الحانات القذرة بلا رب

ولا قانون. وعندما وجدا العنوان اخيرا، كانت تلحق بالعربة عصبة اطفال عراة يسخرون من زينة الحوذي المسرحية، وكان على هذا ان يفزعهم بالسوط ليبتعدوا. اما الدكتور اوربينو، الذي هيأ نفسه لزيارة سرية، فقد ادرك بعد فوات الاوان انه لا سذاجة اشد خطورة من السذاجة في سنه.

لم يكن في مظهر البيت الخارجي ما يميزه عن البيوت الاقل حظا، سوى النافذة ذات الستارة المخرمة وبوابة منتزعة من كنيسة قديمة. طرق الحوذي بقرعة الباب، وعندما تأكد من صحة العنوان، ساعد الطبيب على النزول من العربة. كانت البوابة قد فتحت دون ضجة، وفي العتمة الداخلية كانت تقف امرأة ناضجة، متشحة بالسواد المطلق وتضع وردة على اذنها. ورغم سنوات عمرها، التي لم تكن اقل من الاربعين، فانها ما زالت تبدو خلاسية شامخة، ذات عينين ذهبيتين قاسيتين، وشعر مثبت على شكل الرأس وكأنه خوذة من القطن الحديدي. لم يعرفها الدكتور اوربينو، رغم انه قد رآها عدة مرات في شرود ادوار الشطرنج في محل المصور، وقد وصف لها في احدى المناسبات اوراق الكينا من أجل الحمى الثلاثية، مد يده اليها، فتناولتها بين يديها، ليس لمصافحته وانما لمساعدته على الدخول. كانت الصالة تعبق برائحة وهسيس ايكة لامرئية، وكانت مليئة باثاث واشياء موزعة باتقان، كل شيء في مكانه الطبيعي. فتذكر الدكتور اوربينو دون مرارة دكان بائع عاديات في باريس، في يوم اثنين خريفي من ايام القرن الماضي، في ٢٦ شارع مونتمارت.

جلست المرأة مقابله وحدثته باسبانية ركيكة قائلة:

ـ اعتبر نفسك في بيتك يا دكتور. لم اكن انتظرك بمثل هذه السرعة.

احس الدكتور اوربينو بانه مكشوف. دقق فيها بقلبه، دقق في حدادها الكثيف، في وقار كآبتها، وفهم عندئذ ان زيارته تلك بلا فائدة، لانها كانت تعرف اكثر منه بكل ما هو وارد ومبرر في رسالة جيرميا دي سانت ـ آمور. وهكذا كان. لقد رافقته حتى ساعات قليلة قبيل موته، كما رافقته خلال ما يقرب من عشرين سنة بولاء ورقة منقادة اليه بما يشبه الحب، ودون ان يعرف ذلك احد في عاصمة الاقليم الناعسة هذه، حيث اسرار الدولة ذاتها كانت مشاعة. لقد تعارفا في مشفى للعابرين في بورت ـ او ـ برنس، حيث ولدت هي، وحيث امضى هو سنواته الاولى كهارب، ثم لحقت به الى هنا بعد سنة في زيارة قصيرة، مع انهما كلاهما كانا يعلمان دون اتفاق مسبق بانها جاءت لتبقى الى الابد، كانت تتولى تنظيف وترتيب مخبر التصوير مرة في الاسبوع، لكن أسوأ الجيران تفكيرا ما كانوا يخلطون الظاهر بالحقيقة، لانهم كانوا يفترضون مثل كل الناس ان عاهة جيرميا دي سانت ـ آمور ليست في المشي فقط. وحتى الدكتور اوربينو ذاته كان يفترض ذلك لاسباب طبية راسخة تماما، ولم

يظن يوما ان تكون له امرأة لو لم يكشف له ذلك في الرسالة. غير انه لم يستطع ان يفهم كيف ان كائنين راشدين وحرين وبلا ماض، على هامش اهتمامات مجتمع غارق في شؤونه، قد اختارا نكبة الحب المحرم. وشرحت له ذلك: «كانت تلك هي رغبته». ثم ان تقاسمها السرية مع رجل لم يكن رجلها تماما في يوم من الايام، وتعرفهما اثناء ذلك على انفجارات السعادة الفورية اكثر من مرة، لم يكن ليبدو لها بالوضع غير المرغوب فيه، بل على العكس: ربما ان الحياة اثبتت لها بان تلك هي الطريقة النموذجية.

لقد ذهبا الليلة الماضية الى السينما، كل منهما بمفرده، وجلسا في مقعدين منفصلين، كما يفعلان مرتين في الشهر على الاقل مذ اقام المهاجر الايطالي دون غاليليو داكونتي صالة السينما المكشوفة في اطلال دير من القرن السابع عشر. ورأيا فلما مأخوذا عن كتاب كان رائجا في العام الفائت، وكان الدكتور اوربينو قد قرأه بقلب مكروب لبربرية الحرب: لا جديد في الجبهة. ثم اجتمعا بعد ذلك في المخبر، وهناك وجدت انه يقاسي التشتت والحنين، وفكرت ان ذلك بتأثير المشاهد القاسية للجرحى المحتضرين في الوحل. فحاولت تسليته بدعوته الى لعب الشطرنج، وقد وافق ليرضيها، لكنه كان يلعب دون تركيز، بالقطع البيضاء طبعا، الى ان اكتشف قبلها انه سيهزم بعد اربع حركات اخرى، فاستسلم بلا كبرياء. حينئذ ادرك الطبيب ان خصم اللعبة الاخيرة كان هذه المرأة وليس الجنرال جيرونيمو ارغوتي، كما افترض. فتمتم مدهوشا:

ـ انها لعبة متقنة!

فاصرت بان لا فضل لها في ذلك، وان جيرميا دي سانت ـ آمور الهائم في ضباب الموت، كان يحرك الاحجار دون حب، وعندما اوقف اللعب، في حوالي الساعة الحادية عشرة والربع، كانت موسيقى حفلات الرقص العامة قد توقفت، فطلب منها تتركه وحيدا. كان يريد كتابة رسالة الى الدكتور اوربينو، الذي يعتبره اكثر الرجال الذين عرفهم وقارا، اضافة الى كونه صديق الروح، كما كان يحب ان يقول، رغم ان التشابه الوحيد بينهما هو ادمانهما لعبة الشطرنج على انها حوار للعقل وليست علما. عندئذ عرفت ان جيرميا دي سانت ـ آمور قد وصل الى نهاية الاحتضار، وانه لم يبق له في الحياة الا ما يكفي لكتابة الرسالة. لم يستطع الطبيب تصديقها، فهتف:

ـ كنت تعلمين اذن!

فأكدت بانها لم تكن تعلم فقط، وانها ساعدته ايضا على تجاوز الاحتضار بنفس الحب الذي ساعدته به على اكتشاف السعادة. لان الشهور الاحد عشر الاخيرة في حياته كانت احتضارا قاسيا.

قال الطبيب:

- كان واجبك ان تبلغي عنه.

فقالت مستنكرة:

- انا لا استطيع فعل ذلك.. كنت احبه كثيرا.

الدكتور اوربينو، الذي كان يعتقد بانه سمع بكل شيء في الدنيا، لم يسمع ابدا في حياته شيئا من هذا القبيل، يجري الاعلان عنه بكل هذه البساطة، نظر اليها بحواسه الخمس وجها لوجه ليثبتها في ذاكرته كما هي في تلك اللحظة: كانت تبدو وكأنها إله طاف، متماسكة في ثوبها الاسود، بعينيها اللتين كعيني افعى والوردة التي على اذنها. منذ سنوات بعيدة، وعلى شاطىء متوحد من شواطىء هايتي، حيث كانا يرقدان عاريين بعد الحب، قال لها جيرميا دي سانت - آمور وهو يتنهد فجأة: «لن اصير كهلا ابدا». وقد فهمت هي ذلك على انه نية بطولية للنضال دون هوادة ضد نكبات الزمن، لكنه اوضح قصده اكثر: كان لديه تصميم حاسم على وضع حد لحياته في السبعين.

لقد اتمها في الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني للعام الحالي، فحدد حينئذ عشية عيد العنصرة كموعد اخير، لانه اعظم اعياد المدينة المكرسة لعبادة الروح القدس. لم يكن هناك تفصيل من تفاصيل الليلة الماضية لم تكن قد عرفته مسبقا، فكثيرا ما كانا يتحدثان في ذلك، مكابدين معا سيل الايام الجارف الذي لن يستطيع اي منهما ايقافه. كان جيرميا دي سانت - آمور يحب الحياة بعاطفة مبهمة، كان يحب البحر والحب، يحب كلبه ويحبها، وكلما اقترب اليوم الموعود كان يهوي اكثر فأكثر في اليأس، كما لو ان موته لم يكن قرارا ذاتيا وانما قدرا حتميا.

قالت:

- عندما تركته وحيدا في الليل، لم يكن من اهل هذه الدنيا.

كانت تريد اخذ الكلب معها، لكنه تأمله وهو يغفو بجانب العكازين وداعبه باطراف اصابعه، وقال: «اسف، لكن مستر وودرو ويلسون سيمضي معي». طلب منها ان تربطه بقائمة السرير فيما هو يكتب، وفعلت ذلك بعقدة زائفة ليتمكن الكلب من الافلات، وكان هذا هو العمل الوحيد الذي قامت به دون اخلاص، وقد بررته برغبتها في الاستمرار بتذكر السيد من خلال عيني كلبه الشتويتين. لكن الدكتور اوربينو قاطعها ليخبرها بان الكلب لم يفلت. فقالت: «ذلك لانه لم يشأ الافلات اذن». وفرحت، لانها تفضل ان تتذكر الحبيب الميت كما طلب هو منها في الليلة السابقة، عندما قطع كتابة الرسالة التي كان قد بدأها ونظر اليها للمرة الاخيرة، وقال:

- تذكريني بوردة.

كانت قد وصلت الى بيتها بعد منتصف الليل بقليل. استلقت لتدخن في السرير وهي بملابسها، واخذت تشعل سيجارة من عقب الاخرى متيحة له الوقت ليكمل الرسالة التي كانت تعلم انها طويلة وشاقة، وقبيل الثالثة بقليل، عندما بدأت الكلاب تنبح، وضعت الماء على النار لتصنع القهوة، وارتدت ملابس الحداد السوداء وقطفت من الفناء اول وردة من وردات الفجر، لقد تنبه الدكتور اوربينو قبل ان يقرر هجر ذكرى تلك المرأة التي لا تفتدى، وظن انه يعرف السبب: بامكان انسان بلا مبادىء فقط ان يتجاوب الى هذا الحد مع الألم.

تابعت تقديم حججها له حتى نهاية الزيارة: لن تذهب الى الجنازة، لانها وعدت الحبيب بذلك، رغم ان الدكتور اوربينو اعتقد انه فهم عكس هذا في احدى فقرات الرسالة. ولن تسفح دمعة واحدة، ولن تهدر ما تبقى لها من سني الحياة بطبخ نفسها على نار هادئة في مرق الذكرى، ولن تدفن نفسها في الحياة لتجهز كفنها بين هذه الجدران الاربعة كما هي العادة المفضلة للنساء الوطنيات. كانت تفكر ببيع بيت جيرميا دي سانت - آمور، الذي اصبح بكل محتوياته ملكا لها منذ الآن كما هو وارد في الرسالة، وستتابع العيش كما عاشت دائما دون ان تشكو شيئا في مماتة الفقراء هذه التي عاشت فيها سعيدة.

لاحقت تلك العبارة الدكتور خوفينال اوربينو وهو في طريق العودة الى بيته: «مماتة الفقراء هذه». انه ليس بالتعبير المجاني. فالمدينة، مدينته، ما زالت على هامش الزمن كما كانت: نفس المدينة الملتهبة والقاحلة بمخاوفها الليلية وملذات البلوغ المتوحدة، حيث تصدأ الازهار ويفسد الملح. المدينة التي لم يصبها شيء خلال اربعة قرون سوى الهرم البطيء ما بين شجيرات الغار الذابلة والمستنقعات المتعفنة. في الشتاء، امطار فجائية ومخربة تجعل المراحيض تفيض وتحول الشوارع الى برك وحل نتنة. وفي الصيف، غبار لا مرئي، خشن كطباشير حمراء متقدة، يتسرب حتى من اكثر فجوات الخيال احكاما، هائجا برياح مجنونة تنتزع سقوف البيوت وتحمل الاطفال في الهواء. وفي ايام السبت، تغادر جماعات المولدين الفقراء بصخب اكواخ الكرتون والصفيح القائمة على ضفاف المستنقعات، مع حيواناتهم الداجنة وامتعة اكلهم وشربهم الرخيصة، ويحتلون بهجوم مرح الشواطىء الحصوية في القطاع الاستعماري. وقد كان بعضهم، بين اكبرهم سنا، يحملون حتى سنوات قليلة وسم العبيد الملكي، مطبوعا بالحديد المحمى على الصدر. وكانوا يرقصون في نهاية الاسبوع بلا رحمة، ويسكرون حتى الموت بكحول مقطر في البيوت، ويمارسون الحب الحر بين خمائل

الايكاكو، وفي منتصف ليل الاحد يخربون مهرجانهم بمشاجرات دامية يخوضونها جميعهم ضد جميعهم. انهم الناس المندفعون انفسهم الذين يتسربون في بقية ايام الاسبوع الى ساحات وازقة الاحياء القديمة، بعربات محملة بكل ما يمكن شراؤه وبيعه، ويبثون في المدينة الميتة جنون مهرجان بشري له رائحة السمك المقلي: حياة جديدة.

ان الاستقلال عن السيطرة الاسبانية، ثم الغاء الرق بعد ذلك، قد عجلا بحالة الانحطاط المشرف التي ولد وترعرع فيها الدكتور اوربينو. حيث كانت عائلات الزمن الغابر العظيمة تغرق بصمت في قصورها المجردة من الابهة. اما في تفرعات الشوارع المرصوفة التي قاومت بفاعلية عالية مفاجآت الحروب وانزالات القراصنة، فكانت الشجيرات الملتفة تتدلى من الشرفات وتفتح صدوعا في جدران الجير والحجر حتى في البيوت التي ما زالت في حالة حسنة، وعلامة الحياة الوحيدة في الساعة الثانية ظهرا هي تمارين البيانو الخافتة في عتمة القيلولة. كانت النساء تحتمين من الشمس في غرف النوم الباردة والمشبعة بالبخور كاحتمائهن من عدوى فاحشة، بل ويغطين وجوههن بالطرحة في صلوات الفجر، وكن يمارسن حبهن ببطء وصعوبة، وغالبا ما تعكر هذا الحب خواطر مشؤومة، فيما الحياة تبدو لهن امرا لا نهائيا. وعند المغيب، في وقت ازدحام حركة المرور، تنطلق من المستنقعات عاصفة من البعوض السفاح، وموجة خفيفة من بخار السلح البشري الحار والكئيب، مثيرة في اعماق النفس قلق الموت.

ان حياة المدينة الاستعمارية، التي اعتاد خوفينال اوربينو الشاب رسم صورة مثالية لها في لحظات حنينه الباريسية، لم تكن حينئذ الا وهما من اوهام الذاكرة. لقد كانت اكثر مدن الكاريبي ازدهارا في القرن الثامن عشر، خصوصا بامتيازها كأكبر سوق للرقيق الافريقي في الامريكتين، وكونها مقر اقامة حكام مملكة غرناطة الجديدة، الذين كانوا يفضلون مزاولة شؤون الحكم من هنا، مقابل اقيانوس العالم، بدلا من العاصمة البعيدة والمتجمدة، التي تشوش الحس الواقعي بمطرها الازلي. وكانت تتجمع فيها عدة مرات في السنة اساطيل السفن المحملة بكنوز بوتوسي، وكيتو، وفيرا اكروث، وكانت المدينة تعيش سنوات مجدها في ذلك الحين. وفي يوم الجمعة، الثامن من حزيران ١٧٠٨، في الساعة الرابعة مساء، جرى اغراق السفينة سان خوسيه التي كانت قد ابحرت لتوها باتجاه قادش وعلى متنها حمولة من الاحجار والمعادن الثمينة قيمتها نصف مليون بيزو من عملة ذلك الزمن، اغرقها اسطول انكليزي مقابل مدخل الميناء، ولم يكن قد جرى استخراجها بعد مرور اكثر من قرنين على غرقها. ولقد كان من عادة المؤرخين ان يذكروا تلك الثروة القابعة في القيعان المرجانية، مع جثة القبطان الطافية على جنبها في مقر القيادة، كرمز للمدينة الغارقة في الذكريات.

في الجانب الآخر من الخليج، في حي لامانغا السكني، كان منزل الدكتور خوفينال اوربينو في زمن آخر. انه بيت فسيح وبارد، مؤلف من طابق واحد، ورواق اعمدة متتالية في المنصة الخارجية، المطلة على مستنقع الابخرة العفنة وركام السفن الغارقة في الخليج. كانت ارضية البيت مرصوفة ببلاط شطرنجي، أبيض واسود، من المدخل وحتى المطبخ، وكثيرا ما عُزي هذا الى هوى الشطرنج الذي يسيطر على الدكتور اوربينو، دون تذكر انه كان ضعفا عاما من جانب البنائين الكتلانيين الذين شادوا في بدايات القرن حي محدثي النعمة ذاك. كانت الصالة فسيحة، وسقفها عال جدا كما هو في بقية البيت، ولها ست نوافذ واسعة تطل على الشارع، وكانت منفصلة عن غرفة الطعام بباب زجاجي ضخم ومزين بفروع دالية وعناقيد وفتيات فاتنات يحملن نايات آلهة الحقول في غابة من البرونز. اثاث حجرة الاستقبال، بما في ذلك ساعة البندول التي لها شكل حارس حي في الصالة، كان كله اثاثا انكليزيا اصيلا من اواخر القرن التاسع عشر. والمصابيح المعلقة كانت من قطع كريستال صخري، وكانت هنالك في كل الانحاء اصص ومزهريات من سيفريس وتماثيل آلهة من الرخام المعرق. لكن ذلك التناسق الاوروبي كان مفقودا في بقية اجزاء البيت، حيث ارائك الخيزران تختلط مع كراس هزازة من فينا ومقاعد جلدية من الصناعة اليدوية المحلية. وفي غرف النوم، كانت توجد اضافة الى الاسرة، شباك نوم معلقة رائعة من سان خاثينتو مطرز عليها بخيوط حريرية اسم صاحب البيت بحروف قوطية، وكانت حوافها محاطة بهداب ملون. اما الردهة المصممة في الاصل من اجل حفلات العشاء، الى جوار صالة الطعام، فقد استخدمت كصالة موسيقى صغيرة تقام فيها حفلات موسيقية للخاصة عندما يحضر عازفون شهيرون. وقد جرت تغطية البلاط بالسجاد التركي المشترى من معرض باريس الدولي لتعميق الصمت في جو البيت. وكان هناك فونوغراف من طراز حديث الى جانب رف عليه اسطوانات حسنة الترتيب. وكان البيانو الذي لم يعزف عليه الدكتور اوربينو منذ سنوات يقبع في احد الاركان مغطى بشرشف من مانيلا. وفي سائر ارجاء البيت كان يظهر حرص وحكمة امرأة راسخة الاقدام في الارض.

لم يكن هنالك في البيت، رغم ذلك، مكان يكشف جلال المكتبة المرتبة، والتي كانت هيكل الدكتور اوربينو قبل ان تقوده الى الشيخوخة. فهناك، وحول طاولة خشب الجوز الخاصة بوالده، وارائك الجلد الوثيرة، جدران مغطاة حتى النوافذ بخزائن ذات رفوف وابواب زجاجية، رتب فيها بنظام شبه جنوني ثلاثة آلاف كتاب متماثلة مجلدة بجلد عجل وعلى عقبها الحروف الاولى من اسمه مكتوبة بماء الذهب. وعلى عكس الحجرات

الاخرى، التي كانت تحت رحمة صخب وروائح الميناء الكريهة، كانت المكتبة تنعم دوما بسمت دير ورائحته. كان الدكتور اوربينو وزوجته اللذان ولدا وترعرعا في ظل الخرافة الكاريبية القائلة بفتح الابواب والنوافذ لادخال البرودة غير الموجودة في الواقع، قد أحسا في البدء بقلبيهما يضيقان بفعل الحبس. لكنهما ما لبثا ان اقتنعا بفعالية الطريقة الرومانية لمواجهة الحر، التي تتلخص باغلاق البيوت في قيظ آب حتى لا يدخل هواء الشارع الملتهب، وفتحها على مصارعها لريح الليل، فأصبح بيته منذ ذلك الحين اكثر البيوت رطوبة تحت شمس لامانغا الحارقة، وكان نوم القيلولة في عتمة المخادع يبعث على السعادة، وكذلك الجلوس على الرواق لرؤية مرور سفن الشحن الثقيلة الرمادية القادمة من نيو اورليانز، والسفن الخشبية ذات العجلة الخلفية وهي تضيء انوارها في العشية، وتنقي بنثار الموسيقى المنبعثة منها مزبلة الخليج الراكدة. وكان بيته هو الاكثر مقاومة ما بين كانون الاول واذار، حين تهدم ريح الشمال المدارية سقوف البيوت، وتقضي الليل مدومة كالذئاب الجائعة حول البيت بحثا عن منفذ تدخل منه. ولم تكن الشكوك تراود احدا في وجود اسباب تحول دون سعادة الزوجين المقيمين فوق تلك الاسس.

لكن الدكتور اوربينو لم يكن كذلك في صباح ذلك اليوم، عندما رجع الى بيته قبل الساعة العاشرة، مشوشا من الزيارتين اللتين لم تحولا بينه وبين قداس العنصرة وحسب، بل وهددتا بتغيير يطرأ عليه وهو في سن ظن ان كل شيء فيها قد انجز. كان يريد ان ينام نوم كلب ريثما يحين موعد وليمة الغداء عند الدكتور لاثيديس اوليفيا، لكنه وجد الخدم هائجين، يحاولون امساك الببغاء التي طارت الى اعلى فرع في شجرة المانغا حين اخرجوها من القفص ليقصوا لها جناحيها. كانت ببغاء منتوفة ومعتوهة، لا تتكلم عندما يطلبون منها الكلام، وانما عندما ينساها الجميع، وتتكلم حينئذ بوضوح ودقة ليست متوفرة بكثرة لدى الكائنات البشرية. لقد دربها الدكتور اوربينو شخصيا، وكان هذا امتيازا لم يحظ به احد من افراد الاسرة، حتى ولا اولاده عندما كانوا اطفالا.

كانت في البيت منذ اكثر من عشرين سنة، ولا احد يعرف كم سنة عاشت قبل ذلك، وكان الدكتور اوربينو يجلس مساء كل يوم، بعد القيلولة على شرفة الفناء، وهو المكان الاكثر برودة في البيت، مستخدما اصعب الاساليب التربوية، حتى توصل الى جعل الببغاء تتحدث بالفرنسية كاكاديمي. بعد ذلك، وبدوافع الفضيلة المحضة، علمها مرافقة القداس باللاتينية، وبعض المقاطع المختارة من انجيل القديس متى، وحاول دون نجاح تلقينها العمليات الحسابية الاربع بشكل آلي. وفي احدى رحلاته الاخيرة الى اوروبا، احضر معه فونوغرافا ذا نفير، وعددا كبيرا من الاسطوانات الشائعة اضافة الى مقطوعات الكلاسيكيين

الاثيرين لديه. ويوما بعد يوم، ومرة بعد اخرى خلال عدة شهور، اسمع الببغاء اغنيات ايفيت جيلبرت وارستيد براون، اللذين كانا بهجة فرنسا وطربها في القرن الماضي، الى ان حفظتها الببغاء عن ظهر قلب، وكانت تغني بصوت امرأة اذا كانت الاغنية لها، وبصوت رجل اذا كان المغني هو، وتنهي الغناء بقهقهة ماجنة هي انعكاس متقن للقهقهات التي تطلقها الخادمات عندما يسمعنها تغني بالفرنسية، وقد وصلت اخبار ظرافتها بعيدا جدا، مما جعل بعض الزوار البارزين الذين يأتون في السفن النهرية من اقاليم الداخل ويطلبون الاذن احيانا لرؤيتها، وقد حاول بعض السائحين الانكليز الذين كانوا يتوافدون بكثرة في تلك الاثناء على متن سفن نيو اورليانز المحملة بالموز، ان يشتروها باي ثمن. لكن يوم مجدها الاكبر هو اليوم الذي جاء فيه رئيس الجمهورية دون ماركو فيدل سواريز، مع وزراء حكومته بكاملهم، الى البيت للتأكد من صحة سمعتها. وصلوا في حوالي الساعة الثالثة مساء، مختنقين بقبعات وبذلات المراسم التي لم ينزعوها طوال ايام الزيارة الرسمية الثلاثة، تحت سماء آب المتقدة، وقد اضطروا للانصراف مخذولين كما جاؤوا، لان الببغاء رفضت ان تقول حتى ان هذا المنقار هو منقاري، خلال ساعتين من اليأس، رغم التوسلات والتوعدات والخجل العام الذي احيق به الدكتور اوربينو، الذي اصر على تلك الدعوة الجريئة رغم تحذيرات زوجته الحكيمة.

ان مجرد احتفاظ الببغاء بامتيازاتها بعد حادثة العجرفة التاريخية هذه كان دليلا نهائيا على مكانتها المقدسة. لم يكن مسموحا ابقاء اي حيوان اخر في البيت، باستثناء السلحفاة البرية، التي عادت للظهور في المطبخ بعد ثلاث او اربع سنوات ظنوا خلالها انها قد ضاعت الى الابد. وهذه لم يكن ينظر اليها ككائن حي، وانما كانت اشبه بتميمة جامدة من اجل حسن الطالع، ولم يكن احد يدري على وجه التحديد مكانها. كان الدكتور اوربينو يصر على اعلان كراهيته للحيوانات، ويعلل ذلك بكل انواع الخرافات العلمية والحجج الفلسفية التي تقنع الكثيرين، لكنها لا تنفع في اقناع زوجته، كان يقول ان من يفرطون في حب الحيوانات هم القادرون على اقتراف ابشع القساوات مع البشر. وكان يقول ان الكلاب ليست وفية وانما هي ذليلة، وان القطط انتهازية وخائنة، وان الطواويس ليست الا عراقيل مزركشة، وان الارانب تثير الجشع، والقرود تعدي البشر بحمى الشبق والديكة ملعونة لانها استخدمت لانكار المسيح ثلاث مرات.

اما فرمينا داثا، زوجته، والتي كان لها من العمر حينئذ اثنتان وسبعون سنة وكانت قد فقدت مشيتها الغزلانية التي كانت لها في زمن مضى، فهي مولعة حد العبادة بالازهار الاستوائية والحيوانات الداجنة، ولقد استغلت في بدء الزواج تأجج الحب لتقتني منها في

البيت اكثر بكثير مما ينصح به العقل السليم. كان اول ما اقتنته هو ثلاثة كلاب دلماسية لها اسماء اباطرة رومان تنازعت فيما بينها افضال انثى متشرفة باسم ميسالينا، ما تكاد تلد تسعة جراء حتى تحبل بعشرة اخرين. بعد ذلك جاءت القطط الحبشية بوجوهها التي كوجوه النسور واخلاقها الفرعونية، والقطط الفارسية الحولاء ذات العيون البرتقالية، التي كانت تذرع حجرات النوم كظلال شبحية وتملأ الليل صخبا بموائها في اجتماعات حبها التي كاجتماعات الساحرات. وكان هناك لبضع سنوات قرد امازوني مقيد من خاصرته الى شجرة المانغا في الفناء، وكان يثير نوعا من العاطفة لوجهه الكئيب كوجه الاسقف اوبدوليو، كما كانت لعينيه سذاجة عيني الاسقف، وطلاقة يديه ذاتها، ولم يكن هذا هو السبب الذي دفع فيرمينا داثا للتخلص منه، وانما عادته الرذيلة بالاستمناء على شرف سيدات المجتمع.

كانت هناك جميع انواع عصافير غواتيمالا في اقفاص تملأ الممرات، وكانت توجد كراوين متنبئة وبلشونات المستنقعات ذات القوائم الطويلة الصفراء، وغزال صغير يطل من النوافذ ليأكل ورود المزهريات. وقبل الحرب الاهلية الاخيرة بقليل، عندما دارت للمرة الاولى احاديث عن زيارة محتملة للبابا، احضروا من غواتيمالا طائر الجنة الذي تأخر في المجيء وقتا اطول مما تأخره في العودة الى وطنه، بعد ان تبين ان الاعلان عن الزيارة البابوية كان اشاعة اطلقتها الحكومة لاخافة الليبراليين المتآمرين. وفي مناسبة اخرى، اشتروا من مراكب مهربي كوراثاو الشراعية قفصا من الاسلاك المعدنية فيه ستة غربان معطرة، كتلك التي كانت تمتلكها فيرمينا داثا وهي صبية في بيت والدها، ورغبت في اقتنائها وهي متزوجة، لكن احدا لم يحتمل خفقات اجنحتها الدائمة التي كانت تضمخ جو البيت برائحة اكاليل الموتى. كما جلبوا افعى اناكوندا طولها اربعة امتار، كانت انفاسها الساهرة تبعث القلق في ظلمة غرف النوم، رغم انهم حققوا ما ارادوه منها، فانفاسها الابدية كانت تبعد الخفافيش والسمندر، ومختلف انواع الحشرات المؤذية التي تهاجم البيت في شهور المطر. اما الدكتور خوفينال اوربينو المنهمك في ذلك الحين بمسؤولياته المهنية، والغارق في نشاطاته الحضارية والثقافية، فكان يكفيه الافتراض بان زوجته، وسط كل هذه الحيوانات البغيضة، ليست اجمل امرأة في منطقة الكاريبي وحسب، بل واكثرهن سعادة ايضا. ولكن في احد الايام الماطرة، وبعد يوم عمل منهك، وجد في البيت كارثة اعادته الى الواقع. فمن صالة الاستقبال وعلى مدى البصر كانت تتناثر حيوانات ميتة غارقة في بركة من الدماء، فيما الخادمات المتسلقات على الكراسي دون ان يدرين ما الذي عليهن عمله، لم يكن قد استعدن السيطرة على انفسهم من هول المجزرة بعد.

القضية هي ان احد الكلاب البوليسية الالمانية، اصيب بنوبة سعار جنونية مفاجئة، وراح يمزق كل حيوان يجده في طريقه من أي جنس كان، الى ان واتت جنائني البيت المجاور الشجاعة لمواجهته وتمزيقه بمنجله. ما كانوا يعرفون كم هي الحيوانات التي عضها، او نقل اليها العدوى بزبد ريقه الاخضر، فأمر الدكتور اوربينو والحال هذا بقتل ما بقي حيا من الحيوانات واحراق اجسادها في حقل مهجور. ثم طلب من خدمات مستشفى الرحمة تعقيم البيت تعقيما شاملا. والحيوان الوحيد الذي نجا لان احدا لم يتذكره، كان ذكر السلحفاة حسن الطالع.

وللمرة الاولى رأت فيرمينا داثا ان زوجها يحق في احد الشؤون البيتية وحاذرت من الحديث بعد ذلك عن الحيوانات لفترة طويلة من الزمن. وكانت تعزي نفسها بصور ملونة من كتاب التاريخ الطبيعي للبنيو، قامت بوضعها في أطر وعلقتها على جدران الصالة. وربما كانت ستفقد الامل في رؤية أي حيوان في البيت ثانية، لولا ان اللصوص خلعوا في فجر احد الايام نافذة الحمام وسرقوا المرحاض الفضي الموروث من خمسة اجيال. ركب الدكتور اوربينو اقفالا مزدوجة في حلقات النوافذ، واحكم اقفال الابواب من الداخل بمزالج حديدية، وخبأ الاشياء الثمينة في صندوق الكنوز، واعتاد متأخرا على العادة الحربية بالنوم والمسدس تحت الوسادة. لكنه اعترض على شراء كلب باسل، ملقح او غير ملقح، مفلت او مقيد، حتى ولو تركه اللصوص على العظم.

قال:

ـ لن يدخل هذا البيت كائن لا يحسن الكلام.

قال ذلك ليضع حدا لحجج زوجته الواهية، المصرة مجددا على شراء كلب، دون ان يعلم ان ذلك القرار المتعجل سيكلفه حياته، اذ تمكنت فيرمينا داثا، التي كان طبعها الجاف قد رق بفعل السنين، وتشبثت بزلة لسان زوجها: وبعد شهور من السرقة ذهبت الى مراكب كوارثاو الشراعية واشترت ببغاء ملكية من باراماريبو كانت تحسن اطلاق شتائم البحارة فحسب، لكنها تنطقها بصوت انساني مما جعلها تستحق ثمنها الغالي البالغ اثني عشر سنتافو.

كانت ببغاء جيدة، اخف مما يخيل لمن يراها، رأسها اصفر ولسانها اسود، وهو الشيء الوحيد الذي يميزها عن ببغاوات المانغلير والتي لا تتعلم الكلام حتى ولا بتحاميل زيت البطم. وقد انحنى الدكتور اوربينو، الخاسر الجيد، امام ذكاء زوجته، وفوجىء هو نفسه بالطرافة التي اضفاها تعليم الخادمات على الببغاء الشعثاء. ففي الامسيات الماطرة، حين تنحل عقدة لسانها لسعادتها بريشها المبتل، كانت تنطق عبارات من ازمان اخرى لا يمكن

ان تكون قد تعلمتها في البيت، مما يحمل على التفكير بانها اكبر سنا مما تبدو عليه. وقد انهارت اخر تحفظات الطبيب عندما حاول اللصوص في احدى الليالي دخول البيت ثانية من كوة السقف، وأخافتهم البيغاء بنباح ما كان له ان يكون اكثر شبها بالنباح لو ان صاحبه كان كلبا حقيقيا، وبالصراخ: نشالين نشالين نشالين، وهما ظرافتان منقذتان لم تتعلمهما في البيت. وكان حينئذ ان تولى الدكتور اوربينو مسؤوليتها، فأمر باقامة عمود حمالة تحت شجرة المانغا مع اناء للماء واخر للموز الصغير الناضج، وارجوحة للقفز عليها. وفي الفترة ما بين كانون الثاني واذار، عندما يصبح الليل باردا والجو في الخارج غير صالح للحياة بسبب رياح الشمال المدارية، ينقلونها للنوم في غرف النوم داخل قفص مغطى بحرام، رغم ان الشكوك كانت تساور الدكتور اوربينو من ان داء الخنّب المزمن لدى البيغاء، قد تكون له اثار خطيرة على تنفس البشر. وكانوا طوال عدة سنوات يقصون ريش جناحيها ويفلتونها لتسير على هواها بمشيتها المائلة التي كمشية فارس عجوز. لكنها راحت تتظارف في احد الايام بحركات بهلوانية بين دعائم المطبخ فهوت في قدر الطبيخ وهي تعربد بصيحتها البحرية فلينج من يستطيع النجاة. ولحسن الحظ ان الطاهية تمكنت من اخراجها بالمغرفة، وهي مسلوقة وبلا ريش، ولكنها على قيد الحياة. منذ ذلك الحين صاروا يبقونها في القفص حتى اثناء النهار، رغم الاعتقاد الشعبي السائد بان البغاوات الحبيسة في اقفاص تنسى ما تعلمته، وما عادوا يخرجونها الا في برودة الساعة الرابعة لتلقي دروس الدكتور اوربينو على شرفة الفناء، ولم ينتبه احد في الوقت المناسب الى ان اجنحتها قد نمت واصبحت طويلة بما فيه الكفاية، حتى صباح ذلك اليوم حين كانوا يستعدون لقصها، فطارت هاربة الى اعلى شجرة المانغا.

لم يتمكنوا من الامساك بها طوال ثلاث ساعات. وقد لجأت الخادمات، بمساعدة خادمات الجوار، الى كل الحيل لجعلها تنزل، لكنها بقيت متشبثة بمكانها، صارخة وهي تكاد تنفجر من الضحك: يحيا الحزب الليبرالي، اللعنة، فليحيا الحزب الليبرالي، وهي صرخة جريئة قد تكلف اربعة سكارى منتشين حياتهم. ما كاد الدكتور اوربينو يراها بين اوراق الشجرة، حتى حاول اقناعها بالاسبانية والفرنسية، بل وباللاتينية، والببغاء ترد عليه باللغات ذاتها والتأكيد ذاته ونبرة الصوت ذاتها، لكنها لم تتحرك عن قمة الشجرة. وحين اقتنع ان احدا لن يستطيع اقناعها بالحسنى، امر الدكتور اوربينو ان يطلبوا مساعدة رجال الاطفاء، الذين كانوا لعبته الحضارية الاكثر حداثة.

وفعلا، كان يطفىء الحرائق، حتى وقت قريب، متطوعون يستخدمون سلالم بنائين وسطول ماء تجلب كيفما اتفق، وكانت اساليبهم مشوشة، بحيث كانوا يسببون في معظم الاحيان اضرارا تفوق اضرار الحريق. انما منذ العام الماضي، وبفضل حملة تبرعات قامت بها

جمعية الترقي العام، والتي كان خوفينال اوربينو رئيس شرف لها، اصبح هناك فريق اطفاء محترف وسيارة صهريج مزودة بصفارة وناقوس، وخرطومي ماء عاليي الضغط، وكان رجال الاطفاء هم تقليعة تلك الايام، للدرجة انهم في المدرسة كانوا يوقفون الدروس عندما يسمعون نواقيس الكنائس تقرع بذعر، كي يذهب الاطفال لرؤيتهم وهم يطفئون النار. وكان هذا هو كل ما يفعلونه في البدء. لكن الدكتور اوربينو روى للسلطات البلدية بانه رأى رجال الاطفاء في هامبورغ يبعثون الحياة في طفل عثروا عليه متجمدا في احد الاقبية بعد ثلج استمر هطوله عدة ايام. كما انه رآهم في احد ازقة نابولي، ينزلون ميتا في تابوت من شرفة طابق عاشر، لان ادراج المبنى كانت شديدة الانحناء ولم يتمكن ذوو الميت من اخراجه الى الشارع. وهكذا كان ان تعلم رجال الاطفاء المحليون تقديم خدمات مستعجلة اخرى، كخلع اقفال او قتل افاع سامة، وقدمت لهم مدرسة الطب دورة خاصة بمبادىء الاسعاف الاولي في الحوادث الصغرى. وبهذا لم يكن سخفا ان يطلب منهم المساعدة في انزال بيغاء عن شجرة، ولا سيما هذه البيغاء المتميزة بخصال كثيرة كسيد نبيل. قال الدكتور اوربينو: «قولوا لهم ان هذا بناء على طلبي». ومضى الى حجرة النوم ليرتدي ملابس حفلة الغداء. والحقيقة ان مصير البيغاء في هذه اللحظة، التي يشعر فيها بالضيق من رسالة جيرمي دي سانت ـ آمور، لم يكن يهمه.

كانت فيرمينا داثا قد ارتدت فستانا حريريا، فضفاضا ومفلتا، خصره عند الوركين، ووضعت قلادة من اللالىء الاصيلة بست لفات طويلة متدرجة، وانتعلت حذاء املس ذا كعب عال لا تستخدمه الا في المناسبات الرسمية، فالسنون لم تعد تسمح لها بعسف كثير. لم يكن ذلك الزي الذي على الموضة بالزي المناسب لجدة وقورة، لكنه كان ملائما تماما لجسدها ذي العظام الطويلة، والذي ما زال نحيلا وممشوقا، وليديها اللدنتين الخاليتين من اية شامة شيخوخة، ولشعرها الفولاذي الازرق، المقصوص بشكل مائل على مستوى الخد. والشيء الوحيد الذي ما زالت تحتفظ به من صورة زفافها هو عيناها اللوزيتان الصافيتان وكبرياء الامة، لكن ما كان ينقصها بفعل السن كانت تعوضه بخلقها وتجعله يفيض بجدها. كانت تشعر انها على ما يرام: فعصور مشدات الخصر المعدنية، والخصور المقيدة، والارداف المرفوعة بحيل تعتمد على الخرق القماشية، اصبحت كلها غابرة، وصارت الاجساد المتحررة، المتنفسة حسب مشيئتها، تعرض كما هي، حتى في الثانية والسبعين من العمر.

وجدها الدكتور اوربينو جالسة مقابل خوان الزينة، تحت رياش المروحة الكهربائية البطيئة، واضعة القبعة التي لها شكل الناقوس والمزينة بازهار بنفسج مصنوعة من اللباد. كانت حجرة النوم فسيحة ومشعة، فيها سرير انكليزي مغطى بكلة وردية، ونافذتان

مفنوحتان تطلان على اشجار الفناء حيث ينفذ صرير الزيزان الذاهلة لاحساسها باقتراب المطر. لقد اعتادت فيرمينا دائما، ومنذ العودة من رحلة الزفاف، على اختيار ملابس زوجها بما يتلاءم مع حالة الطقس والمناسبة، ووضعها مرتبة على كرسي منذ الليلة السابقة ليجدها جاهزة لدى خروجه من الحمام. وهي لا تذكر منذ متى بدأت بمساعدته على ارتداء ملابسه، ثم اخيرا على الباسه، وكانت واعية انها بدأت تفعل ذلك بدافع الحب في اول الامر، ولكنها اصبحت مضطرة لعمل ذلك منذ نحو خمس سنوات لانه لم يعد قادرا على ارتداء ملابسه بنفسه. لقد احتفلا منذ وقت قريب باليوبيل الذهبي لزواجهما، وليس بامكان احدهما العيش لحظة واحدة دون الآخر، او دون التفكير به، مع انهما يعيان ذلك اقل فاقل كلما استفحلت الشيخوخة. ولم يكن بمقدور اي منهما القول ان كانت تلك العبودية المتبادلة ترتكز على الحب ام على الراحة، لكنهما لم يتساءلا عن ذلك ابدا وايديهما على القلب، اذ فضل كلاهما دوما تجاهل الجواب. لقد بدأت تكتشف شيئا فشيئا تعثر خطى زوجها، واضطراب مزاجه، وتصدع ذاكرته، وعادته الاخيرة بالبكاء وهو نائم، لكنها لم تر في ذلك علامات صدأ نهائي بين، بل عودة سعيدة الى الطفولة. ولهذا لم تعامله على انه شيخ صعب وانما كطفل هرم، ولقد كانت تلك الخدعة الهاما من العناية الالهية لكليهما لانها وضعتهما بمنأى عن الشفقة.

لا بد ان الحياة كانت ستصبح شيئا آخر لكليهما، لو انهما عرفا في الوقت المناسب ان تصريف كوارث الزواج العظيمة اسهل من تصريف المناكفات اليومية الصغيرة، واذا كانا قد تعلما شيئا معا فهو ان الحكمة تأتينا في الوقت الذي لا تعود به ذات نفع. لقد احتملت فيرمينا دائما بقلب مثقل، طوال سنوات، استيقاظات زوجها الاحتفالية الباكرة. كانت تتشبث باخر خيوط النعاس كي لا تواجه قدر صباح جديد يحمل معه نذير الشؤم، فيما يستيقظ هو ببراءة طفل وليد: كل يوم جديد هو يوم يكسبه في الحياة. كانت تسمعه ينهض مع الديكة، واول علامة من علائم الحياة يقوم بها هي كحة لا مبرر لها يبدو وكأنه يتعمدها لايقاظ زوجته. كانت تسمعه يهمهم، ليقلقها فحسب، فيما هو يبحث باللمس عن خفيه اللذين يجب ان يكونا الى جوار السرير. وتسمعه يخطو نحو الحمام متلمسا خطواته في الظلام. وبعد ان يقضي ساعة في مكتبه، وحين تكون قد عادت لتغفو من جديد، تسمعه يعود ليرتدي ملابسه دون ان يشعل النور حتى هذا الوقت. لقد سألوه يوما، في لعبة من العاب الصالون، كيف يعرف نفسه، فقال: «انني رجل يرتدي ملابسه في العتمة». كانت تسمعه وهي عارفة انه لا حاجة لاي صوت من تلك الاصوات التي يصدرها، وانه يفعل ذلك متعمدا ومتظاهرا العكس، تماما مثلما هي مستيقظة وتتظاهر انها ليست كذلك وكانت اسبابه صحيحة: فهو لم

يحتج اليها ابدا حية وصاحية، كما يحتاج اليها في هذه اللحظات العصيبة.

لم تكن هنالك من هي اكثر منها اناقة في النوم، اذ كانت تنام في وضعية راقصة، مسندة احدى ذراعيها على جبهتها. كما لم يكن هنالك من هو اكثر وحشية منها عندما يقلقون احساسها بالاعتقاد انها نائمة وهي ليست كذلك، كان الدكتور اوربينو يعرف انها تبقى مصغية الى ادنى ضجة يثيرها، بل وتكون شاكرة له، لانها تجد بذلك من تلقي عليه اللوم في ايقاظها منذ الخامسة صباحا، وقد كان الامر كذلك حقا، لدرجة انه في المناسبات القليلة التي كان يتلمس فيها بحثا عن خفيه في الظلام في مكانهما المعتاد، كانت تقول له فجأة بصوت ناعس: «لقد تركتهما البارحة في الحمام». ثم تردف في الحال بصوت صاح وغاضب:

ـ ان اكبر مصيبة في هذا البيت هي ان المرء لا يجد فيه الى النوم سبيلا.

وعندئذ تتقلب في الفراش، وتشعل النور دون ان تأخذها اية رحمة بنفسها، سعيدة بانتصارها الاول لهذا النهار. لقد كانت في العمق لعبة لكليهما، لعبة خرافية وشريرة، لكنها منعشة في الوقت نفسه: انها احدى سعادات الحب المدجن الخطيرة. ولكن بسبب احدى هذه الالعاب التافهة كانت الثلاثين سنة الاولى من الحياة المشتركة على وشك الانهيار لان الصابون لم يكن موجودا في الحمام في احد الايام.

بدأ الامر ببساطة وروتينية. كان الدكتور اوربينو قد رجع الى حجرة النوم، في الزمن الذي كان ما يزال يستحم فيه دون مساعدة، وبدأ بارتداء ملابسه دون اشعال النور. اما هي، فكانت ما تزال في وضعها الجنيني الدافىء كعادتها في مثل هذا الوقت: عيناها مغمضتان، تنفسها هادىء، وهذه الذراع المستندة الى الجبهة وكأنها في رقصة مقدسة. لكنها كانت نصف نائمة، كما هي العادة، وكان يعرف ذلك. وبعد صرصرة طويلة من بدلة الكتان المنشاة في العتمة، كلم الدكتور اوربينو نفسه قائلا:

ـ منذ اسبوع وانا استحم بلا صابون.

عندئذ استيقظت، وتذكرت، وانقلبت غضبا ضد العالم، لانها نسيت بالفعل وضع صابونة جديدة في الحمام. لقد لاحظت غياب الصابون منذ ثلاثة ايام، وكانت قد اصبحت تحت الدوش، ففكرت باحضار قطعة صابون فيما بعد، لكنها نسيت فيما بعد الى اليوم التالي. وفي اليوم الثالث حدث لها الشيء نفسه. لم يكن قد مضى اسبوع في الواقع، كما يدعي ليضاعف من احساسها بالذنب، وانما ثلاثة ايام لا تغتفر، ثم ان الغضب من احساسها بانها فوجئت وهي على خطأ اخرجها عن طورها، فسارعت كعادتها للدفاع عن نفسها بالهجوم:

صرخت دون وعي:

ـ لقد استحميت كل هذه الايام، وكان الصابون دوما في مكانه.

ورغم معرفته الجيدة لاساليبها في الحرب، فانه لم يستطع احتمالها هذه المرة، ومضى ليعيش في غرف القسم الداخلي في مشفى الرحمة تحت اية ذريعة مهنية، ولم يعد يظهر في البيت الا لاستبدال ملابسه عند المساء، قبل ان يقوم بجولة عيادته على بيوت المرضى. كانت تذهب الى المطبخ عندما تسمع مجيئه، متصنعة عمل اي شيء، وتبقى هناك الى ان تسمع وقع حوافر حصاني العربة في الشارع، وكلما حاولا حل الخلاف في الشهور الثلاثة التالية، فان الشيء الوحيد الذي كانا يتوصلان اليه هو تعقيده. لم يكن مستعدا للعودة الى البيت ما دامت لا توافقه على انه لم يكن يوجد صابون في الحمام، ولم تكن مستعدة لاستقباله ما دام لا يعترف بانه كذب وهو واع لتعذيبها.

ومنحهما الحادث طبعا فرصة لاستحضار حوادث اخرى، وتذكر الكثير من المسائل الصغيرة والصباحات القلقة. وبعثت الاحقاد احقادا اخرى، وفتحت جراح قديمة كانت ملتئمة لتنزف من جديد، وقد فزع كلاهما لليقين المدمر بانهما لم يفعلا شيئا خلال سنوات طويلة من الصراع الزوجي سوى رعاية الاحقاد. ووصل به الامر لان يقترح عليها التقدم معا للاعتراف المفتوح امام نيافة الاسقف اذا اقتضى الامر، ليكون الرب هو الحكم الاخير الذي يقرر اذا كان في مصبنة الحمام صابون ام لا. اما هي التي كانت تمتلك مرتكزات قوية حتى ذلك الحين، فقد اضاعتها بصرخة هستيرية:

ـ فليذهب السيد الاسقف الى الخراء!.

هزت تلك الشتيمة ركائز المدينة، وكانت منطلقا لحكايات واقاويل ليس من السهل تكذيبها، وبقيت عالقة في المأثور الشعبي كتعبير شائع: «فليذهب السيد الاسقف الى الخراء!». ومدركة انها قد تجاوزت الحد، سارعت الى اتخاذ ردة الفعل التي انتظرتها من زوجها، فهددته بالانتقال وحدها الى بيت ابيها القديم، الذي ما زال ملكا لها، رغم انه مؤجر كمكاتب عامة. لم يكن ذلك تبجحا: كانت تريد الذهاب حقا، غير مبالية بالفضيحة الاجتماعية، وقد تنبه الزوج الى ذلك في الوقت المناسب. ولم تكن لديه الشجاعة الكافية لتحدي تهورها. فاستسلم ليس بمعنى القبول بانه كان يوجد صابون في الحمام، لان ذلك سيكون اهانة للحقيقة، وانما وافق على ان يستمرا بالعيش في البيت نفسه، ولكن في حجرتين منفصلتين، ودون ان يكلما بعضهما. وهكذا كانا يأكلان، ويصرفان المواقف ببراعة فائقة بتبادل الطلبات من احد اطراف المائدة الى الطرف الاخر بواسطة ابنيهما، دون ان ينتبه الابنان الى انهما لا يتبادلان الحديث.

وبما انه لا وجود لحمام في مكتبه، فان هذه الصيغة قد حلت الخلاف حول الضوضاء الصباحية، لانه اصبح يدخل للاستحمام بعد ان ينتهي من تحضير درسه، ويتخذ الاحتياطات الحقيقية كي لا يوقظ زوجته. وفي احيان كثيرة كانا يلتقيان وينتظران بالدور لتنظيف اسنانهما قبل النوم. وبعد اربعة شهور، استلقى ليقرأ في الفراش الزوجي فيما هي خارجة الى الحمام، كما كان يحدث كثيرا، فغلبه النعاس، استلقت الى جانبه بحركة مفرطة في الخشونة لتجعله يستيقظ وينصرف. واستيقظ بالفعل شبه استيقاظ ولكنه بدلا من ان ينهض اطفأ مصباح السرير واستراح على وسادته. فهزته من كتفه لتذكره بان عليه الذهاب الى مكتبه، لكنه كان يشعر مجددا بانه في حالة جيدة على فراش الريش الموروث عن اسلافه، ففضل الاستسلام.

قال لها:

ـ دعيني هنا، نعم، كان هناك صابون.

حين كانا يتذكران هذا الحادث، بعد ان اصبحا عند منعطف الشيخوخة، ماكانا ليصدقا الحقيقة المذهلة بان ذلك الشجار كان الاخطر خلال نصف قرن من الحياة المشتركة، والشجار الوحيد الذي بعث فيهما كليهما رغبة الاذعان والبدء في حياة اخرى. وحتى عندما اصبحا عجوزين وديعين كانا يحاذران من ذكره، لان الجراح قليلة الالتئام سرعان من تعاود النزيف وكأنها جراح الامس.

كان هو اول رجل سمعته فيرمينا دائما يتبول. سمعته في ليلة الزفاف في قمرة السفينة التي حملتهما الى فرنسا، فيما الدوار ينهكها، وبدا لها وقع ينبوعه الحصاني قويا ومتسلطا، مما ضاعف رعبها من الاذى الذي يخيفها. وقد كانت تلك الذكرى تعاود مخيلتها بكثرة، كلما اضعفت السنون من قوة الينبوع، لانها لم تستطع الصبر ابدا على تلويثه حافة مقعد المرحاض كلما استخدمه. وقد حاول الدكتور اوربينو اقناعها، بحجج سهلة الفهم لمن يرغب في فهمها، ان ذلك الحدث يتكرر يوميا ليس بسبب اهماله، كما كانت تتصور هي، وانما لسبب عضوي: فينبوعه في سنوات صباه كان محددا ومستقيما، حتى انه كسب وهو في المدرسة بطولة التسديد لملىء زجاجات، لكنه لم يضعف فحسب مع استخدامات السن، وانما اصبح زائغا كذلك، واخذ يتشعب، الى ان اصبح في نهاية الامر ينبوعا وهميا يستحيل توجيهه، رغم الجهود الكثيرة التي يبذلها لتصحيح مساره. كان يقول: «لا بد ان مخترع المرحاض ذا المقعد لا يعرف شيئا عن الرجال». وكان يساهم في السلام البيتي بعمل يومي هو اقرب الى الذل منه الى التواضع: كان يمسح بورق صحي حواف مقعد المرحاض كلما استخدمه، وكانت تعرف انه يفعل ذلك، لكنها لم تكن تقول شيئا ما لم تفح روائح الامونياك في الحمام، عندئذ

تعلن الامر وكأنه اكتشاف جريمة: «ان هذا يثير قرف حظيرة ارانب». وعلى مشارف الشيخوخة، ادى تثاقل جسد الدكتور اوربينو الى الهامه الحل النهائي: صار يبول وهو جالس، كما تفعل هي، مما حافظ على مقعد المرحاض نظيفا، وجعله يتخذ وضعا ظريفا.

كان يقوم بشؤونه حينئذ بشكل سيء. لكن انزلاقا في الحمام كاد يودي بحياته جعله يتخذ موقفا حذرا من الدوش. فالبيت، رغم كونه من البيوت الحديثة، كان يفتقد حوض البانيو المعدني ذا القوائم التي كقوائم الاسد، والذي كان استخدامه شائعا في بيوت المدينة الاستعمارية، فقد امر هو بانتزاعه متذرعا بحججه الصحية: ان حوض البانيو هو احدى قذارات الاوروبين الكثيرة، الذين لا يستحمون الا في يوم الجمعة الاخير من كل شهر، ثم انهم يفعلون ذلك وسط الماء المتسخ بالوساخة نفسها التي يريدون ازالتها عن اجسادهم. وهكذا طلبوا صنع صفيحة كبيرة من الصفيح على قوائم من خشب غوايا كان المتين، حيث اصبحت فيرمينا دائما تحمم زوجها بنفس طقوس تحميم الاطفال حديثي الولادة. كان الحمام يستمر لاكثر من ساعة، بماء فاتر غليت فيه اوراق العطرة وقشور البرتقال، وكان للحمام تأثير مهدىء عليه يجعله يغفو في النقيع المعطر احيانا. وبعد تحميمه، تساعده فيرمينا دائما على ارتداء ملابسه، وترشه ببودرة التالك ما بين ساقيه، وتدهنه بدهن جوز الهند في مواضع السماط، وتلبسه سرواله الداخلي بحنان شديد كما لو كان حفاضة طفل رضيع، وتتابع الباسه الثياب قطعة قطعة، من الجوارب حتى ربطة العنق ذات المشبك الياقوتي. وصارت الصباحات الزوجية اكثر سكونا، لانه عاد الى طفولته التي انتزعها منه الاولاد. وانتهت هي من جانبها الى الانسجام مع النظام العائلي، لان السنوات كانت تمضي بالنسبة لها ايضا، فاصبحت تنام اقل فاقل، وقبل ان تتم السبعين صارت تستيقظ قبل زوجها.

في يوم احد العنصرة، عندما رفع الشرشف عن جثة جيرميا دي سانت - آمور، انكشف للدكتور اوربينو امر كان يرفض التفكير فيه حتى ذلك الحين في ابحاراته الجلية كطبيب ومؤمن. فبعد سنوات طويلة من التعايش مع الموت، وبعد صراعه ولمسه باطنا وظاهرا لسنوات عديدة، كانت تلك هي المرة الاولى التي تجرأ فيها على النظر الى وجه الموت، وكان الموت ينظر اليه ايضا. لم يكن احساسه خوفا من الموت لا: فالخوف كان بداخله منذ سنوات، يحيا معه، كان ظلا اخر فوق ظله، منذ ليلة استيقظ فيها قلقا لرؤيته حلما مشؤوما جعله يدرك ان الموت ليس احتمالا ماثلا فقط، كما احسه دائما، وانما هو واقع قائم. وبالمقابل، فان ما رآه يومذاك هو حضور جسدي لشيء لم يكن قد تجاوز كونه تصورا يقينيا حتى ذلك الحين. وقد اسعده ان يكون اداة العناية الالهية لهذا الكشف هو جيرميا دي سانت - آمور، الذي اعتبره دوما قديسا يجهل فضل ذاته، ولكن عندما كشفت له الرسالة حقيقة هويته، وماضيه الفاسد، وقدرته اللامعقولة على الخداع، احس بان شيئا نهائيا لا رجعة فيه قد طرأ على حياته.

ومع ذلك فان فيرمينا دائما لم تسمح له بنقل عدوى مزاجه المكفهر اليها. لقد حاول ذلك بالطبع فيما هي تساعده على دس ساقيه في البنطال وتزرر صف ازرار القميص الطويل. لكنه لم يصل الى ما يريد لان التأثير على فيرمينا دائما لم يكن سهلا، وخصوصا في موت رجل لم تكن تحبه. كانت تعرف بالكاد ان جيرميا دي سانت - آمور هو رجل مقعد ذو عكازين لم تره ابدا، وانه قد فر من فصيلة الإعدام في احدى التمردات الكثيرة في واحدة من جزر الانتيل العديدة. وانه عمل مصور اطفال بدافع الحاجة وصار الاكثر شهرة في الاقليم كله، وانه قد كسب دور شطرنج من شخص تتذكر هي ان اسمه توريمولينوس بينما الحقيقة ان اسمه كابا بلانكا.

قال لها الدكتور اوربينو:

- لم يكن سوى هارب من كايينا، ومحكوم بالمؤبد على جريمة فظيعة اقترفها. وتصوري ان الامر وصل به الى اكل اللحم البشري.

اعطاها الرسالة التي كان يريد حمل اسرارها معه الى القبر، لكنها خبأت الاوراق المطوية في خوان الزينة، دون ان تقرأها، واقفلت الدرج بالمفتاح، كانت معتادة على قدرة زوجها الكبيرة على الاندهاش، وعلى احكامه المبالغ فيها والتي اخذت تصبح اكثر تعقيدا مع مرور السنوات، وعلى ضيق افق لا يتلاءم مع صورته العامة. لكنه في تلك المرة تجاوز حدوده المعتادة. وافترضت ان زوجها ليس معجبا بجيرميا دي سانت - آمور لما كان عليه فيما مضى، وانما لما بدأ يكونه منذ قدومه بلا متاع سوى حقيبة المنفيين التي كان يحملها، ولم تستطع ان تفهم لماذا فجع الى ذلك الحد باكتشاف هويته متأخرا. ولم تفهم لماذا يبدو له فظيعا ان يكون على علاقة بامرأة سرية اذا كان هذا الامر عادة وراثية بين الرجال الذين هم من صنفه، بما في ذلك هو نفسه في لحظة جحود. وقد رأت في مساعدتها له على تنفيذ قراره بالموت دليلا مؤثرا على الحب. وقالت: «واذا ما قررت انت عمل ذلك ايضا لاسباب جدية كتلك التي كانت لديه، فان واجبي ان افعل مثلما فعلت هي». ووجد الدكتور اوربينو مرة اخرى نقطة عدم الفهم البسيطة التي اثارت حفيظته طوال نصف قرن.

- قال:

- انت لا تفهمين شيئا. ان ما يغيظني ليس ما كانه او ما فعله، وانما الخديعة التي جعلها تنطلي علينا جميعا خلال هذه السنوات الطويلة.

بدأت عيناه تغرورقان بدموع سهلة، فيما تصنعت هي التجاهل وردت:

ـ حسنا فعل. فلو انه قال الحقيقة لما كنت انت ولا هذه المرأة المسكينة، ولا احد في البلدة احبه كما احببتموه.

ثبتت الساعة ذات السلسلة في عروة الصدرية. وعقدت له ربطة العنق ووضعت له المشبك الياقوتي. ثم مسحت دموعه ونظفت لحيته الباكية بالمنديل المبلل بعطر اغوا فلوريدا، ووضعته في جيب الجاكيت على الصدر فاتحة اطرافه كزهرة مانوليا. دقت ساعة البندول دقاتها الاحدى عشرة في البيت الراكد، فقالت وهي تقوده من ذراعه:

ـ اسرع. سنصل متأخرين.

كانت اميتنا ديتشامباس، زوجة الدكتور لايثديس اوليفيا، وبناتها السبع المتحمسات، قد اعددن كل شيء من اجل ان يكون غداء اليوبيل الفضي هو حدث السنة الاجتماعي، منزل العائلة القائم في مركز المدينة التاريخي وهو بيت المال سابقا، كان قد غير من طرازه المعماري مهندس فلورنسي مر من هنا مثل ريح شؤم، وحول الى كنائس على الطراز الفينيسي بقايا اكثر من اربعة معابد من القرن السابع عشر. كان في البيت ست حجرات نوم وصالونان للطعام والاستقبال، واسعان وحسنا التهوية، لكنهما لا يتسعان لمدعوي المدينة، فضلا عن النخبة التي ستأتي من الخارج. كان الرواق اشبه بباحة دير، في وسطه نافورة حجرية بغرد الماء فيها، وجنائن من الهيليوتروب تعطر البيت عند المغيب، لكن الفسحة المقنطرة لم تكن كافية لكل تلك الالقاب العظيمة. ولهذا قرروا اقامة حفل الغداء في بيت العائلة الريفي، على بعد عشر دقائق في السيارة على الطريق العام، ففيه ساحة فسيحة وشجيرات غار هندية كثيفة ونيلوفر مهجن في مسيل ماء وديع، رجال مطعم دون سانتشو، نصبوا بتوجيه من السيدة اوليفيا، مظلات شوادر ملونة في الاماكن التي لا ظلال فيها، واقاموا تحت اشجار الغار مستطيلا من الطاولات يتسع لمئة واثنين وعشرين شخصا، مع شراشف كتانية بيضاء لجميع الطاولات، واغصان ورد طازجة على طاولة الشرف. كما اقاموا منصة لفرقة موسيقى الآلات الهوائية التي كان برنامجها يقتصر على موسيقى راقصة وفالسات وطنية، ولرباعي وتري من مدرسة الفنون الجميلة، هي مفاجأة السيدة اوليفيا لاستاذ زوجها الموقر، الذي سيرأس الغداء، ومع ان اليوم المحدد للاحتفال لم يكن يتفق تماما مع ذكرى التخرج، فقد اختاروا يوم احد العنصرة ليضاعفوا من ضخامة معنى الحفلة.

بدأت الاستعدادات قبل ثلاثة شهور، خوفا من نسيان شيء او عدم انجازه في الموعد المحدد، احضروا الدجاج الحي من ثييناغا دي اورو، لشهرة هذا الدجاج في منطقة الساحل كلها، ليس بحجمه وطعمه اللذيذ وحسب، وانما لانه في الزمن الاستعماري كان يعفر في

اراضي الطمي، فكانوا يجدون في حوصلته حصيات من الذهب الخالص، وكانت السيدة اوليفيا شخصيا، برفقة بعض بناتها وبعض الخدم، تصعد الى متن السفن العابرة الفخمة لتنتقي افضل ما يصل من كل مكان لتشريف مكانة زوجها. لقد احتاطت لكل شيء، باستثناء ان الحفلة ستكون يوم احد حزيراني في سنة متأخرة الامطار. وقد ادخلت امر خطر كهذا في حسابها صباح يوم الحفلة بالذات، عندما خرجت الى القداس الكبير وفزعت لرطوبة الهواء، ورأت ان السماء كثيفة وواطئة وان البصر لا يصل لرؤية الافق البحري. ورغم علائم النحس هذه، فقد ذكرها مدير الارصاد الجوية، الذي التقت به في الصلاة، بانه لم يحدث في تاريخ المدينة المشؤوم جدا، حتى ولا في أقسى فصول الشتاء، ان هطل المطر في يوم العنصرة. ورغم ذلك، فعندما دقت الساعة معلنة الثانية عشرة، وفيما كان معظم المدعوين يتناولون المقبلات في الهواء الطلق، جعل انفجار الرعد الارض تهتز، واطاحت ريح بحرية عنيفة بالموائد وحملت المظلات في الجو، وانهارت السماء بمطر كالكارثة.

لقد تمكن الدكتور خوفينال اوربينو من الوصول بجهود مضنية في فوضى العاصفة، مع اخر الضيوف الذين التقى بهم في الطريق، وكان يريد الوصول الى البيت قافزا من العربات مثلهم فوق الاحجار، عبر البهو المضطرب، لكنه قبل اخيرا مذلة ان يحمله رجال دون سانتشو على الاذرع تحت مظلة من قماش اصفر، وجرى اعداد الطاولات المنفصلة من جديد على احسن وجه ممكن داخل البيت، وحتى في غرف النوم، ولم يقم المدعوون بأي جهد لاخفاء مزاجهم الغارق بالماء، كان الحر في البيت كانه مرجل سفينة، اذ انهم اغلقوا النوافذ ليمنعوا دخول المطر الذي يهطل مائلا بفعل الريح. كان يوجد على الطاولة في الفناء بطاقة تحمل اسم كل مدعو وتحدد مكانه، وكان مقررا ان يكون هناك جانب للرجال واخر للنساء، كما هي العادة في ذلك الحين، لكن البطاقات التي تحمل الاسماء اختلطت داخل البيت، وجلس كل واحد كيفما استطاع، بفوضى هائلة خالفت لمرة واحدة على الاقل تقاليدنا الاجتماعية البالية، ووسط الكارثة، كانت اميتنا دي اوليفيا تبدو وكأنها في كل مكان، بشعرها المبلل وثوبها الرائع الملطخ بالوحل، لكنها تعلو على المصيبة بابتسامة لا تقهر تعلمتها من زوجها كي لا تتيح للعوازل ان يشمتوا. وبمساعدة بناتها، المصاغات في الكور نفسه، تمكنت الى حد ما من حجز الاماكن على طاولة الشرف، فكان الدكتور خوفينال اوربينو في الوسط والاسقف اوبدوليو اي ري الى يمينه. وجلست فيرمينا داثا الى جانب زوجها، كما اعتادت ان تفعل دوما، خوفا من ان يغلبه النعاس اثناء الغداء او ان يسكب الحساء على قبة سترته. واحتل الموقع المقابل الدكتور لاثيديس اوليفيا، وهو خمسيني ذو مظهر انثوي، يحتفظ

الطاولة بممثلي السلطات الاقليمية والبلدية، وملكة جمال العام الفائت، التي قادها الحاكم من ذراعها ليجلسها الى جواره، ورغم انه لم تكن هناك عادة طلب زي خاص في الدعوات، ولا سيما في غداء ريفي، فقد كانت السيدات يرتدين بدلات سهرة وحلي من احجار كريمة، ومعظم الرجال يلبسون بدلات قاتمة مع ربطة عنق سوداء، وبعضهم يرتدي الستر الرسمية البيضاء، وذوو المشاغل الكثيرة وحدهم، ومنهم الدكتور اوربينو، كانوا يرتدون بدلات يومية، وفي كل مكان كانت توجد نسخة من المينو[1]، مطبوعة بالفرنسية مع رسوم مذهبة.

ذرعت السيدة اوليفيا، المرتعبة من اهوال الحر، البيت راجية من الجميع خلع سترهم لتناول الغداء، لكن احدا لم يجرؤ على ان يكون قدوة للاخرين. ولقد لفت الاسقف انتباه الدكتور اوربينو الى ان ذلك الغداء هو غداء تاريخي بطريقة ما: فهناك يجتمع لاول مرة على طاولة واحدة، وبعد التآم الجروح وتبدد الاحقاد، فريقا الحروب الاهلية التي اغرقت البلاد بالدم منذ الاستقلال. كان هذا التفكير يتلاءم مع حماس الليبراليين، وخصوصا الشباب منهم الذين تمكنوا من اختيار رئيس من حزبهم بعد خمس واربعين سنة من هيمنة المحافظين. ولم يكن الدكتور اوربينو متفقا في ذلك: فرئيس ليبرالي لا يبدو له اقل او اكثر من رئيس محافظ، سوى انه اسوأ هنداما. ومع ذلك، لم يشأ معارضة الاسقف. رغم انه رغب بان يلمح له ان احدا لم يدع لحضور الغداء من اجل افكاره وانما لشرف محتده، وان هذه كانت دائما فوق نكبات السياسة وفظائع الحرب. واذا نظرنا بهذا المنظار، فليس هنالك اي خلل حقا.

توقف وابل المطر فجأة كما بدأ، والتهبت الشمس في السماء الصافية فورا، لكن العاصفة كانت من العنف بحيث انتزعت بعض الاشجار من جذورها، وتحول الماء المتجمع حول الفناء الى مستنقع راكد، اما الكارثة الكبرى فكانت في المطبخ، حيث اقيمت عدة مواقد من الطوب في القسم الخلفي من البيت، في العراء، وما كاد الطهاة يضعون القدور بمنأى عن المطر، حتى راحوا يضيعون وقتا ثمينا في نزح الماء من المطبخ الغارق واقامة مواقد جديدة على عجل في الرواق الخلفي، ولكن حالة الطوارىء انتهت في الواحدة ظهرا، ولم يكن ينقص سوى الحلوى التي كلفت بصنعها راهبات سانتا كلارا، اللواتي وعدن بارسالها قبل الساعة الحادية عشرة. وكانت الخشية من ان تكون ساقية الطريق الرئيسي قد فاضت كثيرا، كما يحدث عادة في فصول شتاء اقل قساوة، ففي هذه الحالة لا يمكن وضع الحلوى في الحساب قبل مرور ساعتين. ما ان توقف المطر حتى فتحوا النوافذ، فلطف الهواء المنقى بكبريت

(١) قائمة باصناف الطعام.

العاصفة جو البيت. ثم امروا بان تعزف الفرقة الموسيقية برنامجها على مصطبة الرواق، لكن ذلك لم ينفع سوى في زيادة الجزع، لان دوي النحاس داخل البيت كان يضطرهم لتبادل الحديث صراخا. فامرت اميتادي اوليفيا المنهكة من الانتظار، والتي كانت تبتسم وهي على حافة الدموع، بتقديم الطعام.

بدأت فرقة مدرسة الفنون الجميلة الوترية بالعزف وسط صمت رسمي استمر حتى النغمات الاولى من معزوفة لاتشاس لموزارت. ورغم الاصوات التي اخذت تعلو اكثر فاكثر وتصبح اشد اختلاطا، ورغم عرقلة خدم دون سانتشو الزنوج الذين لم يكن الفراغ بين الموائد يكفي لمرورهم وهم يحملون الصواني التي يتصاعد منها البخار، فقد تمكن الدكتور اوربينو من الاحتفاظ بقناة مفتوحة على الموسيقى حتى نهاية البرنامج. كانت قدرته على التركيز تتناقص سنة بعد اخرى، حتى انه كان يضطر الى تسجيل كل حركة شطرنج يقوم بها على الورق ليعرف اين صار في اللعب. ومع ذلك، فهو ما زال قادرا على مواصلة محادثة جدية دون ان يفلت خيط الموسيقى، رغم انه لا يصل في ذلك الى الحد الذي يصله قائد اوركسترا الماني، كان صديقا حميما له خلال فترة اقامته في النمسا، اذ كان يقرأ نوتة موسيقية لدون جيوفاني فيما هو يسمع تانهاوزر.

المقطوعة الثانية في البرنامج كانت الموت والصبية، لشوبرت، وبدا له انها تعزف بدرامية سهلة. وفيما هو يستمع اليها بمعاناة شديدة، من خلال الجلبة الجديدة التي اثارتها ادوات الطعام في الصحون، كان يحتفظ بنظره معلقا بشاب ذي وجه وردي حياه بانحناءة من رأسه. لا شك انه رآه في مكان ما، لكنه لا يذكر اين. ان هذا يحدث له كثيرا مع الاسماء، فهو ينسى احيانا اسماء اقرب الناس اليه، وكذلك مع الحان زمن اخر، مما يثير فيه قلقا مخيفا، جعله يفضل الموت في احدى الليالي على الاحتمال حتى الفجر. وكان على وشك الوصول الى هذه الحالة عندما اضاء له بريق مشفق ذاكرته: الشاب هو احد تلاميذه من العام الفائت. وفوجىء برؤيته هنا، في مملكة الصفوة، لكن الدكتور اوليفيا ذكره بانه ابن وزير الوقاية الصحية، وقد جاء الى هنا لتحضير اطروحة في الطب الشرعي. واشار له الدكتور خوفينال اوربينو بتحية سعيدة من يده، فوقف الشاب ورد على التحية باحترام. انها لم يخطر للدكتور اوربينو حينئذ، ولا فيما بعد، بانه المتمرن الذي كان معه صباح هذا اليوم في بيت جيرميا دي سانت - آمور.

مع احساسه بالراحة لهذا الانتصار الجديد على الشيخوخة، غادر الغنائية الصافية المنسابة لاخر مقطوعة موسيقية في البرنامج، لم يستطع تحديد هويتها. وقد اخبره بعد ذلك عازف الكمان الشاب في المجموعة، الذي رجع من فرنسا منذ وقت قريب، بان المقطوعة هي

الرباعية الوترية لغابرييل فاوريه، الذي لم يكن الدكتور اوربينو قد سمع باسمه رغم ترصده الدائم لكل جديد من اوروبا. فيرمينا داثا، المتنبهة اليه، كعادتها، وخصوصا عندما تراه ساهما وسط الناس، توقفت عن تناول الطعام ووضعت يدها الدنيوية على يده، وقالت له: «لا تفكر في الامر اكثر». فابتسم لها الدكتور اوربينو من الضفة الاخرى للغيبوبة، وكان ان عاد حينئذ للتفكير فيما كانت هي تخشاه. تذكر جيرميا دي سانت - آمور، موسدا في هذه الساعة في التابوت بزيه العسكري الزائف وميدالياته الكاذبة، تحت نظر اطفال الصور المتهمة. التفت نحو الاسقف ليطلعه على خبر الانتحار، لكنه كان عارفا به. كان قد تحدث مطولا في هذا الامر بعد القداس الكبير، بل انه تلقى طلبا من الكولونيل جير ونيمو ارغوتي، باسم لاجئي الكاريبي، لدفنه في الارض الطاهرة. قال: «ان الطلب بحد ذاته برأيي هو قلة احترام» ثم، بلهجة اكثر ادمية، سأله ان كان يعرف سبب الانتحار. ورد عليه الدكتور اوربينو بكلمة صحيحة ظن انه اخترعها في تلك اللحظة: خوف الشيخوخة. الدكتور اوليفيا، الذي كان منصرفا باهتمامه الى اقرب الضيوف منه، تركهم لبرهة ليشارك في الحوار مع استاذه. قال: «من المؤسف اننا ما زلنا نلتقي بمنتحر دافعه للانتحار ليس الحب». ولم يفاجأ الدكتور اوربينو من التعرف على افكاره في آراء تلميذه النجيب. فقال:

- بل الاسوأ من ذلك ان الانتحار تم بسيانور الذهب. ما ان قال ذلك حتى احس بان الشفقة قد عادت لتتغلب على مرارة الرسالة، ولم يرجع الفضل في ذلك الى زوجته وانما الى معجزة من معجزات الموسيقى، حينئذ حدث الاسقف عن القديس الملحد الذي تعرف هو نفسه عليه في امسيات الشطرنج البطيئة، وحدثه عن تكريسه لفنه من اجل اسعاد الاطفال، وعن سعة أطلاعه العجيبة على كل شؤون الدنيا، وعن عاداته الاسبارطية، وقد فوجىء هو نفسه بنقاء الروح الذي مكنه من الانفصال فجأة وبشكل كامل عن ماضيه. ثم حدث العمدة عن اهمية شراء ارشيف مسودات الصور لحفظ صور جيل ربما لن يعود للشعور بالسعادة خارج صوره، جيل في يديه مستقبل المدينة. لقد ذعر الاسقف لان كاثوليكيا مواظبا ومطلعا تجرأ على التفكير بقدسية منتحر، لكنه وافق على المبادرة الى ارشفة مسودات الصور، واراد العمدة ان يعرف ممن عليه ان يشتريها. فكوى الدكتور اوربينو لسانه بجمرة السر، لكنه استطاع احتمالها دون الكشف عن وارثة الارشيف السرية، وقال: «انا سأتولى الامر». واحس بانه افتدى بوفائه المرأة التي تركها قبل خمس ساعات. لاحظت فيرمينا داثا ذلك، وجعلته يعاهدها بصوت واطىء على حضور الدفن. طبعا سأفعل - قال مفرجا عن نفسه - كل شيء الا هذا.

كانت الخطب قصيرة وبسيطة، وبدأت فرقة الآلات النفخية بعزف موسيقى غوغائية، غير مقررة في البرنامج، وانتقل المدعوون الى الشرفات بانتظار ان ينتهي رجال فندق دون سانتشو من نزح الماء المتجمع في الفناء، ليروا ان كان هنالك من سيتحمس للرقص. والوحيدون الذين بقوا في الصالة هم مدعوو طاولة الشرف، الذين كانوا يحتفلون باحتساء الدكتور اوربينو نصف كأس من البراندي دفعة واحدة في نخب اخير. ليس هناك من يذكر انه فعل ذلك قبل اليوم، ما عدا ارتشافه كأس نبيذ من صنف فاخر، مع وجبة خاصة جدا في مناسبات قليلة، لكن قلبه طلب هذا في ذلك اليوم، وكان ضعفه حسن لاثابة: اذ احس مجددا، بعد سنوات وسنوات، برغبة في الغناء. وكان سيفعل ذلك دون شك، بناء على طلب عازف الكمان الشاب الذي تطوع لمرافقته، لولا ان سيارة من السيارات الجديدة اجتازت اوحال الفناء بسرعة، ملوثة الموسيقيين بالوحل ومثيرة طيور البط في الاقفاص بنفيرها الذي كصوت البط، وتوقفت امام مدخل البيت. نزل الدكتور ماركو اوريليو اوربينو داثا وزوجته وهما غارقان بالضحك، يحملان في كل يد صينية مغطاة بقماش محرم. وكانت هناك صوان اخرى مماثلة في المقاعد الخلفية، وعلى ارضية السيارة الى جنب السائق ايضا. انها الحلوى المتأخرة. وبعد ان توقف التصفيق وصفير السخرية الودود، شرح الدكتور اوربينو داثا بجدية كيف ان الراهبات طلبن منه نقل الحلوى قبل ان تبدأ العاصفة، لكنه رجع من الطريق العام لان احدهم قال له بان بيت والديه يحترق، اصاب الذعر الدكتور خوفينال اوربينو دون ان ينتظر انتهاء ابنه من الحكاية. لكن زوجته ذكرته بانه هو نفسه قد امر باستدعاء رجال الاطفاء للامساك بالببغاء، وقررت امينتا دي اوليفيا، المتألقة بهجة، ان تقدم الحلوى على الشرفات، حتى ولو كان ذلك بعد تناولهم القهوة، لكن الدكتور اوربينو وزوجته انصرفا دون تذوقها، لان الوقت المتبقي لا يكاد يكفيه لنوم قيلولته المقدسة قبل ان يذهب الى الجنازة.

نام قيلولته، انما لوقت قصير وبشكل سيء، لانه عندما عاد الى البيت، وجد ان رجال الاطفاء قد تسببوا باضرار تقارب بخطورتها اضرار حريق، ففي محاولتهم لافزاع الببغاء، اسقطوا احدى الاشجار بخراطيم الضغط المرتفع، ودخلت دفقة ماء سيئة التصويب من نافذة حجرة النوم الرئيسية محدثة اضرارا لا مجال لاصلاحها في الاثاث وفي صور الاجداد المجهولين المعلقة على الجدران. وقد هرع الجيران عندما سمعوا جرس سيارة الاطفاء، معتقدين ان حريقا قد شب. واذا كانت لم تحدث قلاقل اسوأ، فلأن المدارس كانت مغلقة لان اليوم هو يوم احد، وعندما ايقنوا انهم لن يتمكنوا من الوصول الى الببغاء حتى باستخدام السلالم ذات الاجزاء الاضافية، اخذ رجال الاطفاء يحطمون الاغصان

بالفؤوس، وكان ظهور الدكتور اوربينو داثا هو الذي منعهم من بتر جذع الشجرة. فتوقفوا بعد ان وعدوا بالرجوع بعد الساعة الخامسة ليروا ان كانوا يخولونهم بتقليم الشجرة. وفي طريقهم لوثوا الشرفة والصالة بالوحل، ومزقوا سجادة تركية هي المفضلة لدى فيرمينا داثا، فكانت كارثة بلا طائل. اضافة الى ان الرأي السائد كان القائل بان الببغاء قد انتهزت فرصة الفوضى لتهرب عبر الباحات المجاورة، وقد بحث عنها الدكتور اوربينو فعلا بين اوراق الشجرة، ولم يتلق ردا باية لغة، ولا حتى بالصفير والغناء، فاعتبرها مفقودة ومضى لينام في حوالي الساعة الثالثة وقبل ذلك تلذذ بمتعة بوله المصفى بالهليون الدافىء.

ايقظه الاسى. ليس الاسى الذي احسه صباحا وهو امام جثة صديقه، وانما الغمامة اللامرئية التي كانت تضمخ روحه بعد القيلولة، والتي اعتبرها اخطارا الهيا بانه يعيش اخر امسياته، لم يكن يعي حتى بلوغه سن الخمسين حجم اووزن اوحالة احشائه. وشيئا فشيئا، وفيما هو يرقد مغمض العينين بعد القيلولة اليومية، بدأ يشعر باحشائه في جوفه، جزءا جزءا، بدأ يحس حتى بشكل قلبه المسهد، وكبده الغامض، وبنكرياسه الكتيم، وراح يكتشف ان جميع الناس، بما فيهم اولئك الاكبر منه سنا، كانوا اصغرمنه، وانه الوحيد على قيد الحياة من بين ابناء صورجيله النائي. وعندما تنبه الى حالات نسيانه الاولى، سارع لاستخدام طريقة سمعها من احد اساتذته في مدرسة الطب: «من لا ذاكرة له فليصنع ذاكرة من الورق». لكنها لم تكن سوى وهم زائل، اذ وصل الى اقصى درجات النسيان بنسيانه ما تعنيه ملاحظات التذكير التي كان يدسها في جيوبه، وصار يذرع البيت بحثا عن نظارته التي يضعها على عينيه، ويعيد ادارة المفتاح بعد ان يكون قد اقفل الباب، ويضيع خيط القراءة بنسيانه مقدمات البراهين او اوصاف الشخصيات. لكن اكثر ما كان يقلقه هو ارتيابه بقدرته العقلية ذاتها: وشيئا فشيئا، في غرق محتم، كان يشعر بانه يضيع معنى العدالة.

ومن خلال التجربة وحدها، وذلك دون مرتكزات علمية، كان الدكتور خوفينال اوربينو يعرف ان معظم الامراض القاتلة لها رائحة خاصة، لكن ايا منها ليس محدد الرائحة كما هو داء الشيخوخة. كان يلمس ذلك في الجثث المفتوحة على طاولة التشريح، ويتعرفه حتى في اكثر المرضى اتقانا في اخفاء سنهم الحقيقي، وفي عرق ثيابه بالذات، وفي التنفس الاعزل لزوجته النائمة. ولولا انه كان في اعماقه، مسيحيا على الطريقة القديمة، فربما كان قد اتفق مع جيرميا دي سانت - آمور بان الشيخوخة هي حالة تردد يجب تفاديها مسبقا. ان العزاء الوحيد، حتى بالنسبة لمن كان رجلا جيدا في السرير مثله، هو الانطفاء البطيء والرؤوف للرغبة: السلام الجنسي. لقد كان وهو في الحادية والثمانين يتمتع بوعي يجعله يدرك انه مشدود الى هذا العالم بخيوط واهية قد تنقطع دون الم بمجرد حركة بسيطة اثناء النوم، واذا

كان يفعل كل ما يمكنه للاحتفاظ بتلك الخيوط فذلك لخوفه من الا يجد الرب في ظلمات الموت.

كانت فيرمينا داثا قد انهمكت في ترتيب حجرة النوم التي عاش فيها رجال الاطفاء، وقبيل الساعة الرابعة بقليل حملت الى زوجها كأس الليمونادة اليومي مع الثلج المكسر، وذكرته بان عليه ان يرتدي ملابسه ليذهب الى الجنازة. كان تحت متناول يد الدكتور هذا المساء كتابان اثنان: **الانسان، ذلك المجهول** لالكسيس كاريل، و**تاريخ سان ميشيل** لاكسيل مونث. ولم يكن الكتاب الاخير قد فتح بعد، فطلب من ديغنا باردو، الطاهية، ان تأتيه بفتاحة الكتب العاجية التي نسيها في حجرة النوم. ولكن عندما جاؤوه بها كان قد بدأ القراءة في كتاب **الانسان ذلك المجهول** في الصفحة المعلمة بمغلف رسالة: كانت لا تزال امامه بضع صفحات قليلة لانهاء الكتاب. قرأ بتمهل، شاقا الطريق عبر منعطفات نقطة الم في الرأس عزاها الى نصف كأس البراندي الذي شربه في النخب الاخير. وفي وقفاته عن القراءة كان يتناول رشفة من الليمونادة، اويتمهل في قضم قطعة من الثلج، كان لابسا جوربيه، وقميصه دون وضع الياقة المنفصلة، فيما حمالتا البنطال المطاطيتان بخطوطهما الخضراء تتدليان على جانبي خصره، وكان يزعجه مجرد التفكير بان عليه استبدال ملابسه من اجل الجنازة. ما لبث ان توقف عن القراءة، ووضع الكتاب فوق الكتاب الاخر، وبدأ يتأرجح على مهل في كرسي الخيزران الهزاز، متأملا من خلال الاسى شجيرات الموز في مستنقع الفناء، وشجرة المانغا منتوفة الاغصان، ونمل ما بعد المطر الطيار، والضياء الفاني لمساء اخر ينقضي الى الابد. كان قد نسي انه كان يملك ببغاء في احد الايام وانه احبها كما يحب كائنا بشريا، عندما سمعها فجأة: «ببغاء ملكي». سمعها قريبا جدا منه، الى جواره تقريبا. ثم رآها في الحال على أوطأ اغصان شجرة المانغا. فصرخ بها:

- عديمة الحياء.

وردت الببغاء بصوت مطابق تماما:

- عديم الحياء هو انت يا دكتور.

تابع الحديث معها دون ان يرفع نظره عنها، ريثما لبس جزمته بحذر شديد حتى لا يخيفها، ودس يديه في حمالتي البنطال، ونزل الى الفناء الذي ما زال موحلا متلمسا الطريق بعكازه كي لا يصطدم بدرجات المصطبة الثلاث. بقيت الببغاء دون حراك. وكانت تقف على ارتفاع منخفض جدا، لدرجة انه مد لها العكاز لتقف على قبضته الفضية، كما تفعل عادة، لكن الببغاء اعرضت عنها. قفزت الى غصن مجاور، اعلى قليلا لكن الوصول اليه اسهل، حيث كان السلم الخاص بالبيت مسندا قبل مجيء رجال الاطفاء. قدر الدكتور

اوربينو الارتفاع، وفكر انه بارتقاء عارضتين من عوارض السلم سيتمكن من الامساك بها. صعد الدرجة الاولى، مغنيا اغنية يعرفها كلاهما ليشتت انتباه الطائر الفظ الذي كان يكرر الكلمات دون الموسيقى ويبتعد على الغصن بحركات جانبية. صعد العارضة الثانية دون مشقة وهو يمسك السلم بكلتا يديه، وبدأت الببغاء بترديد الاغنية كاملة دون ان تبدل مكانها. ارتقى العارضة الثالثة، ثم الرابعة في الحال، اذ انه اساء تقدير ارتفاع الغصن، وحينئذ تشبث بيده اليسرى بالسلم وحاول امساك الببغاء باليمنى. كانت ديغنا باردو، الخادمة العجوز قادمة لتنبيهه الى انه يكاد يتأخر عن موعد الجنازة، فرأت ظهر الرجل الصاعد على السلم، ولم تكن لتصدق انه هو لولا الخطوط الخضراء التي على حمالة البنطال المطاطية.

صرخت:

- يا ربنا اقدس! سيقتل نفسه!

امسك الدكتور اوربينو بعنق الببغاء وهو يتنهد ظافرا: انتهى الامر، لكنه افلتها فورا، لان السلم انزلق تحت قدميه وبقي هو معلقا لبرهة في الهواء، فادرك حينئذ انه قد مات دون قربان رباني، ودون ان يتاح له الوقت ليندم على شيء او ليودع ايا كان، في الساعة الرابعة وسبع دقائق من مساء يوم احد العنصرة.

كانت فيرمينا داثا في المطبخ تتذوق حساء العشاء، عندما سمعت صرخة الرعب التي اطلقتها ديغنا باردو وجلبة خدم البيت ثم خدم البيوت المجاورة. القت بملعقة التذوق وحاولت الركض بقدر ما استطاعت مع ثقل سنها الذي لا سبيل الى هزيمته، صارخة كمجنونة، دون ان تعرف حتى الان حقيقة ما جرى تحت اوراق شجرة المانغا، وقفز قلبها مفتتا عندما رأت رجلها مطروحا على ظهره في الوحل، ميتا في الحياة، لكنه ما زال يقاوم ضربة الموت الاخيرة ريثما تصل هي. تمكن من التعرف عليها وسط الحشد ومن خلال دموع الالم التي لا تتكرر لموته من دونها، وتطلع اليها لاخر مرة والى الابد بعينين اشد بريقا، واكثر حزنا، واعظم امتنانا مما رأته طوال نصف قرن من الحياة المشتركة، واستطاع ان يقول لها مع النفس الاخير:

- الله وحده يعلم كم احببتك.

كانت ميتة مشهودة، وليس ذلك من فراغ، فما ان انهى دراسته التخصصية في فرنسا، حتى ذاع صيت الدكتور خوفينال اوربينو في البلاد بانه من درأ مسبقا، باساليب مستحدثة وصارمة، اخطار جائحة الكوليرا الاخيرة التي تعرض لها الاقليم. فالجائحة السابقة، التي جاءت وهو ما يزال في اوروبا، تسببت في موت ربع عدد السكان على الاقل خلال ثلاثة

شهور، بما في ذلك ابوه، الذي كان طبيبا بارزا ايضا. بهذه الشهرة السريعة وباعانة من الارث العائلي، اسس المؤسسة الطبية، وهي المؤسسة الاولى والوحيدة في اقاليم الكاريبي لسنوات طويلة، وكان رئيسا لها مدى الحياة، ثم انشأ اول تمديدات لمياه الشرب بعد ذلك، واول نظام للصرف، ودعا لاقامة السوق العام المسقوف الذي جعل شاطىء لاس انيماس صحيا بعد ان كان مجمعا للنتانة. كما كان رئيسا لاكاديمية اللغة واكاديمية التاريخ. وقد نصبه بطريرك القدس فارسا من مرتبة سانتو سيبولكرو لخدماته التي قدمها للكنيسة، ومنحته الحكومة الفرنسية وسام جوقة الشرف من مرتبة فارس. كما كان محركا فعالا في جميع الجمعيات الدينية والمدنية التي اقيمت في المدينة، وخصوصا الجمعية الوطنية، المؤلفة من مواطنين مؤثرين ليست لديهم طموحات سياسية، يمارسون نفوذهم على الحكومات والتجارة المحلية بافكار متنورة تتسم بالجرأة بالمقارنة مع الظرف التاريخي. من هذه الافكار، واكثرها جدارة بالذكر، كانت تجربة منطاد حمل في طيرانه الاول رسالة الى بلدة سان خوان دي لاثييناغا، قبل زمن طويل من التفكير بالبريد الجوي كوسيلة عقلانية، ومن افكاره ايضا اقامة المركز الفني، الذي اسس مدرسة الفنون الجميلة في المبنى ذاته الذي ما زالت تحتله حتى الان، كما رعى طوال سنوات عديدة مهرجان الزهور في نيسان.

وهو وحده تمكن من تحقيق ما اعتبر مستحيلا خلال قرن من الزمن: اعادة افتتاح مسرح الكوميدي، الذي تحول الى ملعب لصراع الديكة ومربى ديوك منذ العهد الاستعماري. كان ذلك تتويجا لحملة مدنية استعراضية شاركت بها جميع قطاعات المدينة بلا استثناء، في تحرك حاشد اعتبره الكثيرون جديرا بقضية اهم. ومع ذلك، فقد جرى افتتاح مسرح الكوميدي في الوقت الذي لم تكن توجد فيه مقاعد ولا مصابيح، وكان على الحضور ان يجلبوا معهم ما يجلسون عليه وما يستضيئون به في الاستراحات بين الفصول. وفرضت آداب الاتيكيت القائمة في اعظم مسارح اوروبا، حيث انتهزت سيدات المجتمع الراقي الفرصة لعرض فساتينهن الطويلة ومعاطف الفراء، في حر الكاريبي الخانق، انما كان لا بد من السماح للخدم بالدخول ليحملوا المقاعد والمصابيح، وكذلك بعض الاطعمة التي كانوا يرون انها ضرورية لاحتمال البرامج الطويلة التي لا تنتهي، والتي استمر احدها حتى ساعة صلاة الفجر الاولى. وافتتح الموسم بفرقة اوبرا فرنسية كان الجديد لديها استخدام قيثارة في الاوركسترا، وكان مجدها التليد في الصوت، النقي والموهبة الدرامية لمغنية تركية تغني وهي حافية وتضع خواتم ذات احجار كريمة في اصابع قدميها. ومنذ الفصل الاول لم تعد مرئية تقريبا وفقد المغنون اصواتهم بفعل الدخان المنطلق من مصابيح زيت الكوروثو، لكن كتبة وقائع المدينة اهتموا بمحو هذه العوائق الصغيرة وتعظيم ما هو جدير بالذكر. وقد كانت هذه دون شك

اكثر مبادرات الدكتور اوربينو انتشارا، اذ انتقلت عدوى حمى الاوبرا الى قطاعات في المدينة لا تخطر على بال، وكانت منطلقا لجيل كامل من الاسولدات والعطيلين، ومن العايدات السيجفريدين[1]، لكن ذلك كله لم يصل الى الحد الذي تمناه الدكتور اوربينو، الا وهو رؤية نصار الموسيقى الايطالية وانصار فاغنر يواجهون بعضهم بعضا بالعكاكيز اثناء الاستراحات.

لم يقبل الدكتور اوربينو مطلقا اي منصب رسمي من المناصب التي كثيرا ما كانت تعرض عليه دون شروط، وكان ناقدا قاسيا للاطباء الذين يستغلون سمعتهم المهنية ليرتقوا المناصب السياسية. ورغم انه اعتبر ليبراليا دوما، واعتاد على التصويت في الانتخابات لمرشحي هذا الحزب، فربما كان كذلك اخر ابناء الاسر الكبيرة الذي يركع في الشارع لدى مرور مركبة الاسقف. وكان يعرف نفسه كنصير طبيعي للسلام، ونصير للصلح النهائي بين الليبراليين والمحافظين من اجل مصلحة الوطن. لكن سلوكه العام كان ذاتيا لدرجة ان احدا لم يعتبره مواليا له: فالليبراليون يرون فيه قوطيا من قوطيي الكهوف، والمحافظون يقولون ان ما ينقصه هو ان يكون ماسونيا فقط، ويبتعد عنه الماسونيون باعتباره كاهنا متخفيا يعمل في خدمة الكرسي البابوي. واقل نقاده دموية كانوا يفكرون بانه ليس سوى ارستقراطي غارق في ملذات العاب عيد الزهور، فيما الأمة تنزف في حرب اهلية لا تنتهي.

عملان وحيدان قام بهما فقط وبديا غير منسجمين مع هذه الصورة. الاول هو انتقاله الى بيت جديد في حي محدثي الثراء، بدلا من قصر الماركيز دي كاسالدويرو القديم، والذي كان بيت العائلة لاكثر من قرن. والعمل الاخر هو زواجه من آية جمال شعبية، بلا القاب ولا ثروة، تلك التي كانت تسخر منها سرا السيدات ذوات الالقاب الطويلة الى ان اقتنعن بالقوة انها قادرة على اللف بهن سبع لفات برشاقتها وطبعها. وقد كان الدكتور اوربينو يضع في اعتباره دوما هذه العثرات وغيرها مما يحيط بصورته العامة، ولم يكن هناك من هو اكثر منه وعيا لحالته كآخر رجل من ابناء لقب آخذ في الانقراض. فابناه كانا نهاية سلالة لا بصيص امل لها في الاستمرار. ابنه الذكر، ماركو اوريليو، طبيب مثله ومثل كل اسلافه في كل جيل، لم يفعل شيئا يستحق الذكر، حتى انه لم ينجب ابنا، رغم تجاوزه الخمسين من العمر. واوفيليا، ابنته الوحيدة، متزوجة من موظف مرموق في مصرف بينو اورليانز، وقد بلغت سن اليأس ولم تنجب سوى ثلاث بنات دون اي مولود ذكر. مع ذلك، ورغم ان انقطاع رحمه في ينبوع التاريخ كان يسبب له الاسى، فان اكثر ما كان يقلقل الدكتور اوربينو من الموت هو الحياة

[1] صيغة جمع لاسماء: اسولدة، عطيل، عايدة، سيجفريدو، وهي شخصيات درامية مشهورة.

المتوحدة التي ستعيشها فيرمينا دائما بدونه.

لقد اثارت المأساة على كل حال قلقا، ليس بين ذويه فحسب، بل انها انتقلت بالعدوى الى عامة الشعب، الذي خرج الى الشوارع على امل التعرف ولو على بريق الاسطورة. اعلنت ثلاثة ايام من الحداد، ونكست الاعلام على الدوائر العامة، وقرعت نواقيس جميع الكنائس دون توقف الى ان ختم الضريح في مدفن العائلة. وقامت مدرسة الفنون الجميلة بطبع وجه الجثة لاستخدامه كقالب لتمثال نصفي بالحجم الطبيعي، ولكن تم التخلي عن المشروع لان احدا لم يرتقب طبع الوجه امينة بعد التحول الذي اصابه اثر رعب اللحظة الاخيرة. ثم رسم فنان شهير مر من هنا مصادفة، وهو في طريقه الى اوروبا، لوحة زيتية ضخمة بواقعية مؤثرة، يظهر فيها الدكتور اوربينو متسلقا السلم في اللحظة القاتلة التي مد فيها يده للامساك بالببغاء. والشيء الوحيد الذي كان يناقض الحقيقة الخام في القصة هو انه لم يكن يرتدي في اللوحة قميصه الذي بلا ياقة وحمالتي السروال المخططتين بالاخضر، وانما القبعة المدورة والسترة السوداء المأخوذة عن صورة منشورة في الصحف خلال سنوات الكوليرا. وقد عرضت هذه اللوحة بعد شهور قليلة من المأساة كي يراها الجميع بلا استثناء، في صالة السلك الذهبي الفسيحة، وهي دكان لبيع المواد المستوردة يؤمها سكان المدينة بأسرها. بعد ذلك علقت على جدران عدد من المؤسسات العامة والخاصة التي رأت انه من الواجب تقديم فروض الاحترام لذكرى نبيل شهير، وتقلت اخيرا في جنازة ثانية لتعلق في مدرسة الفنون الجميلة، حيث اخرجها من هناك بعد سنوات طويلة طلاب الرسم بالذات لاحراقها في ساحة الجامعة كرمز لجمالية وازمنة مكروهة.

منذ اللحظة الاولى في حياتها كأرملة، بدا ان فيرمينا داثا ليست بائسة كما خشي زوجها. فقد اتخذت موقفا متصلبا بالاصرار على عدم السماح باستخدام الجثة في سبيل اية قضية، كما اتخذت موقفا مماثلا من برقية رئيس الجمهورية، الذي امر بعرض الجثمان في الحجرة الخانقة في صالة الاحتفالات التابعة للسلطة المحلية، وعارضت بنفس الصرامة ان يجري السهر على الجثمان في الكتدرائية، كما طالب الاسقف شخصيا، ووافقت على نقله الى هناك خلال قداس الجسد الحاضر في المراسم الجنائزية. ورغم توسط ابنها، المذهول لكثرة هذه المطالب وتنوعها، حافظت فرمينا داثا باصرار على فكرتها الريفية القائلة بان الموتى لا ينتمون الى احد سوى عائلاتهم، وبانه سيجري السهر على الجثة في البيت مع تقديم القهوة المرة وكعك الجبن والدقيق، وافساح المجال لكل من يشاء لان يبكيه كما يرغب. لم يجر السهر التقليدي الذي يدوم سبع ليال، بل اغلقت الابواب بعد الدفن ولم تعد تفتح الا لزيارات حميمة.

وضع البيت تحت نظام الموت. كل شيء ذي قيمة نقل الى مكان آمن، ولم يبق على الجدران العارية سوى اثار الصور المنزوعة من مكانها. وصفت الكراسي الخاصة وتلك المستعارة من الجيران بمحاذاة الجدران في الصالة، وحتى في غرف النوم، وبدت المساحات الفارغة فسيحة جداً، وكان للاصوات رنين خاص، لان قطع الاثاث الكبيرة قد ابعدت، ما عدا بيانو الكونشيرتو القابع في ركنه تحت شرشف ابيض. وفي وسط المكتبة، فوق طاولة والده، كان ممددا في التابوت من كان خوفينال اوربينو دي لاكايي، وقد تصلبت على وجهه حالة الرعب الاخيرة التي احسها، ومعه في التابوت العباءة السوداء وسيف فرسان سانتو سبيولكرو الحربي. بينما فيرمينا داثا الى جانبه، مرتعشة ولكن مسيطرة على نفسها تماماً، تتلقى التعازي بلا دراماتيكية، ودون ان تتحرك تقريباً، حتى الساعة الحادية عشرة من صبيحة اليوم التالي، عندما ودعت زوجها من الرواق الخارجي قائلة له وداعا بمنديل في يدها.

لم يكن من السهل عليها ان تتماسك هكذا مذ سمعت صرخة ديغنا باردو في الفناء، ووجدت شيخ حياتها يحتضر في الوحل، وقد كانت ردة فعلها الاولى مشبعة بالامل، لان عينيه كانتا مفتوحتين وفيهما بريق ضوء مشع لم تره في حدقتيه ابدا من قبل. رجت الله ان يمنحه لحظة من الحياة على الاقل، كي لا يمضي دون ان يعرف كم احبته فوق شكوكهما كليهما، واحست باستعجال لا يقاوم للبدء معه بالحياة ثانية منذ البداية لتقول له كل ما لم تقله، ولتفعل على احسن وجه كل شيء كانت قد اساءت صنعه في الماضي. ولكنها اضطرت للاستسلام امام عناد الموت، لقد تحلل المها الى غضب اعمى ضد العالم، بل وضد نفسها بالذات، وهذا ما رسخ سيطرتها على نفسها ومنحها الشجاعة لمواجهة العزلة منفردة. لم تجد هدنة منذ ذلك الحين، لكنها حاذرت من الاتيان باية حركة قد يبدو فيها ما ينم عن المها. واللحظة الوحيدة التي احست فيها بشيء من التأثر، وكان تأثرا لا إراديا، كانت في الساعة الحادية عشرة من ليل الاحد، عندما حملوا التابوت الذي ما زالت تنبعث منه روائح كروائح السفن، بمقابضه النحاسية وتنجيده الحريري الوثير. لقد امر الدكتور اوربينو داثا باغلاقه فورا، فجو البيت كان مخلخلا بروائح كل تلك الزهور في الحر الخانق، واحس بانه قد رأى اول الظلال البنفسجية على عنق ابيه. وفيما هي ساهية، سمعت في الصمت: «ان المرء ليصبح شبه متعفن وهو حي في مثل هذه السن». وقبل ان يغلقوا التابوت، نزعت فيرمينا داثا خاتم الزواج من يدها ووضعته في يد زوجها الميت، ثم غطت يده بيدها كما كانت تفعل دائما كلما فاجأته شاردا وسط الناس. وقالت له:

- سنلتقي قريبا جدا.

احس فلورينتينو اريثا، المختفي بين جموع الوجهاء والاعيان، بحربة تخترق خاصرته، لم تكن فيرمينا داثا قد ميزته وسط صخب التعزيات الاولى، مع ان احدا لم يكن اكثر حضورا ولا اكثر فائدة منه في شؤون تلك الليلة المستعجلة. فهو الذي نظم العمل في المطابخ الغاصة حتى لا تنقص القهوة. وحصل على كراس اضافية عندما لم تعد كراسي الجيران كافية، وامر بوضع الاكاليل الزائدة في الفناء عندما لم يعد في البيت متسع لاكليل اخر. وتولى امر عدم انقطاع البراندي من اجل ضيوف الدكتور لاثيديس اوليفيا، الذين علموا بالخبر المشؤوم وهم في اوج الاحتفال باليوبيل الفضي، فجاؤوا فزعين ليتابعوا احتفالهم وهم جالسون على شكل دائرة تحت شجرة المانغا. وكان هو وحده من احسن التصرف حين ظهرت الببغاء الهاربة عند منتصف الليل في صالة الطعام رافعة رأسها وفاتحة جناحيها، مما اشاع قشعريرة ذهول في البيت، اذ كانت تبدو وكانها تقدم عرض توبة وتكفير. امسكها فلورينتينو اريثا من عنقها دون ان يتيح لها الوقت لتصرخ بأي من صرخاتها الحمقاء، وحملها الى الاصطبل في قفص مغطى. لقد فعل كل تلك الامور بصمت كامل وفعالية فائقة، لم تتيحا مجالا لاحد كي يفكر بان ما يفعله هو تدخل في شؤون الاخرين، وانما مساعدة لا تثمن في ساعة الشؤم التي يمر بها البيت.

كان يبدو عليه انه شيخ هرم خدوم وجدي. جسده عظمي ومعتدل، بشرته بنية ومرداء، وعيناه شرهتان تطلان من وراء النظارة المستديرة ذات الاطار المعدني الابيض، له شارب رومنسي طرفاه المدببان مثبتان بمادة مثبتة، بطريقة متخلفة بعض الشيء عن العصر. وكان اخر ما تبقى له من الشعر على الصدغين مسرحا الى اعلى ومثبتا بمثبت شعر في وسط رأسه اللامع، كحل اخير لصلعة متكاملة. ان مروءته الطبيعية واساليبه الهادئة تسلب اللب في الحال، ولكن كان هناك امران يثيران الشكوك في عازب متماد في عزوبيته: لقد انفق مالا كثيرا، وحيلة واسعة وتصميما شديدا كي لا تظهر اثار السنوات الست والسبعين التي اتمها في شهر اذار الاخير، وكان مقتنعا في عزلة روحه بانه قد احب بصمت اكثر بكثير من اي كان في هذا العالم.

في ليلة موت الدكتور اوربينو كان يرتدي الملابس التي كانت عليه عندما فاجأه الخبر، وقد كانت نفس الملابس التي يرتديها دائما بالرغم من حر حزيران الجهنمي: بدلة من القماش الاسود مع صدرية، وشريط حريري معقود على الياقة القاسية، وقبعة من اللبد، ومظلة من مخمل اسود كان يستخدمها كعكاز ايضا. ولكن ما ان بدأ الفجر ينبلج حتى اختفى من مكان السهر على الميت لمدة ساعتين، عاد بعدهما مع اول اشعة الشمس بمظهر طازج، فقد حلق ذقنه جيدا وتطيب بمستحضرات تجميل، وارتدى سترة سوداء من تلك التي لم تعد تستخدم

الا في الجنازات او في مراسم الاحتفال بالجمعة الحزينة، وباقة ذات ربطة عنق مع شريطة الفن بدلا من الكرافتة، وقبعة مستديرة. كما كان يحمل المظلة، وليس ذلك بفعل العادة وحدها، وانما لانه كان متأكدا من ان المطر سيهطل قبل الثانية عشرة، وقد اخبر بذلك الدكتور اوربينو داثا ليرى ان كان بالامكان تقديم موعد الدفن، وحاولوا ذلك فعلا، لان فلورينتينو اريثا ينتمي الى عائلة ملاحين وهو نفسه يرأس شركة الكرايبي للملاحة النهرية، مما يسمح بالافتراض انه يفهم بالارصاد الجوية. لكنهم لم يتمكنوا من اخطار السلطات المدنية والعسكرية في الوقت المناسب، وكذلك المؤسسات العامة والخاصة، والفرقة الموسيقية الحربية وفرقة موسيقى الفنون الجميلة، والمدارس والجمعيات الدينية التي كانت متفقة على الساعة الحادية عشرة، وهكذا فان الجنازة التي كان مقررا لها ان تكون حدثا تاريخيا انتهت شذر مذر بفعل وابل المطر المدمر. وكان قليلا عدد الذين تمكنوا من الغوص في الوحل للوصول الى مدفن العائلة الذي تظلله شجرة ثيبا استعمارية تمتد ايكتها الى ما فوق جدار المقبرة. وتحت هذه الايكة بالذات، انما في المنطقة الخارجية المخصصة للمنتحرين، كان لاجئو الكاريبي قد دفنوا في عصر اليوم السابق جيرميا دي سانت - آمور، وكلبه بجواره، تنفيذا لمشيئته.

كان فلورينتينو اريثا احد القلائل الذين واصلوا لحين الانتهاء من الدفن. لقد ابتلت حتى ملابسه الداخلية، ووصل الى بيته مذعورا من تعرضه للاصابة بنزلة صدرية بعد كل هذه السنوات من الرعاية الدقيقة والاحتياطات المفرطة. اعد لنفسه ليمونادة دافئة مع قليل من البراندي، وتناولها في السرير مع قرصين من الاسبرين وتعرق عرقا غزيرا وهو متدثر بحرام صوفي الى ان استعاد جسده حرارته العادية. وعندما رجع الى بيت العزاء احس بالحماس الكامل. كانت فيرمينا داثا قد تولت من جديدة قيادة البيت المكنوس والمهيأ لاستقبال المعزين، وكانت قد وضعت على المذبح الذي في المكتبة صورة لزوجها الميت مرسومة بالباستل، وعلى اطارها شريط حداد. في الساعة الثامنة كان هناك حشد كبير من الناس وكان الحر خانقا كما في الليلة السابقة، ولكن بعد قداس الصباح بث احدهم رجاء يطلب الى الناس الانصراف باكرا كي تستريح الارملة للمرة الاولى منذ عصر يوم الاحد.

ودعت فيرمينا داثا معظم المعزين وهي الى جانب المذبح، لكنها رافقت المجموعة الاخيرة من الاصدقاء الحميمين حتى الباب الخارجي، لتغلقه بنفسها، كما اعتادت ان تفعل دائما، وكانت تستعد لعمل ذلك باخر نفس متبق في صدرها عندما رأت فلورينتينو اريثا مرتديا ملابس الحداد في وسط الصالة الخاوية. احست بالسعادة، لانها كانت قد محته من

حياتها منذ سنوات طويلة، وكانت هذه هي المرة الاولى التي تراه فيها بوعي طهره النسيان. ولكن قبل ان تتمكن من شكره لهذه الزيارة، وضع قبعته فوق موضع القلب، وشق الدمل الذي كان قوام حياته، بان قال لها بصوت مرتعش ووقور:

- فيرمينا. لقد انتظرت هذه الفرصة لاكثر من نصف قرن، لاكرر لك مرة اخرى قسم وفائي الابدي وحبي الدائم.

ظنت فيرمينا داثا انها تقف امام معتوه، ولم تكن لديها الاسباب لتفكر بان فلورينتينو اريثا كان ملهما في تلك اللحظة بنعمة الروح القدس. وكان رد فعلها الاولي ان لعنته لانتهاك حرمة البيت فيما جثة زوجها ما زالت ساخنة في القبر. لكن الوقار منعها من الغضب، فقالت له: «انصرف. ولا تدعني اراك ثانية في السنوات المتبقية لك في الحياة» ثم اعادت فتح الباب الخارجي على اتساعه بعد ان كانت قد بدأت باغلاقه، واختتمت قائلة:

- وارجو ان تكون سنوات قليلة.

عندما سمعت خطواته تنطفىء في الشارع المقفر، اغلقت الباب ببطء شديد، واقفلته بالقفل والرتاجات، وواجهت قدرها وحيدة، لم تكن تعي تماما، حتى اليوم، وزن وحجم المأساة التي اثارتها وهي في الثامنة عشرة من عمرها، والتي ستلاحقها حتى موتها. بكت لاول مرة منذ مساء المصيبة، دون شهود، وكانت هذه هي طريقتها الوحيدة في البكاء. بكت لموت زوجها، لعزلتها وغضبها، وعندما دخلت مخدعها الخاوي بكت نفسها، لانها لم تنم في هذا الفراش وحيدة منذ فقدت عذريتها الا مرات قليلة. كل اشياء زوجها كانت تستثير بكاءها: الخف ذو الشرابة، البيجاما التي تحت الوسادة، مكانه الفارغ في خوان الزينة، رائحته الشخصية على بشرتها بالذات، وهزها خاطر مبهم: «على الناس اللذين يحبهم المرء ان يموتوا مع كل اشيائهم». لم تكن بحاجة لمساعدة احد كي تنام، ولم ترغب باكل شيء قبل النوم. ورجت الله، وهي مثقلة بالاسى، ان يبعث لها الموت في هذه الليلة بالذات وهي نائمة، وعلى هذا الامل نامت. نامت دون ان تدري بانها نائمة، لكنها كانت تدري انها حية في نومها، وان لديها نصف سرير فائض عن حاجتها، وانها ترقد على جنبها في الطرف الايسر، كما هي عادتها، انما ينقصها توازن الجسد الاخر على الطرف المقابل من السرير. وفيما هي نائمة تفكر، فكرت بانها لن تستطيع النوم ابدا بهذا الحال، وبدأت تنتحب وهي نائمة، ونامت منتحبة دون ان تغير وضعها على حافة السرير، الى ما بعد انتهاء صياح الديكة بكثير. وايقظتها شمس الصباح غير المرغوبة من دونه. وحينئذ فقط ادركت بانها قد

نامت طويلا دون ان تموت، منتحبة في الحلم، وفيما هي تنام منتحبة كانت تفكر بفلورينتينو اريثا اكثر من تفكيرها بزوجها الميت.

اما فلورنتينو اريثا فلم يتوقف عن التفكير بفيرمينا داثا للحظة واحدة منذ أن رفضته بلا استئناف إثر غراميات طويلة متناقضة، وقد انقضت منذ ذلك الحين احدى وخمسون سنة وتسعة شهور وأربعة أيام. لم يكن عليه حمل حساب النسيان بوضع خط صغير يومي على جدران زنزانة، لانه لم يكن يمر يوم إلا ويحدث شيء يذكره بها. كان له من العمر عند القطيعة اثنتان وعشرون سنة وكان يعيش وحيداً مع أمه، ترانسيتو اريثا، في نصف بيت مُستأجر في شارع لاس بينتاناس، حيث كانت لأمه منذ سنوات شبابها تجارة خردوات وحيث كانت تنسل كذلك نسيج قمصان ومزق قماشية قديمة لتبيعها كقطن لجرحى الحرب. وكان هو ابنها الوحيد، انجبته من لقاء عابر مع صاحب السفن المعروف دون بيو الخامس لوايثا، أكبر الاشقاء الثلاثة الذين اسسوا شركة الكاريبي للملاحة النهرية، مقدمين بذلك دفعة جديدة للملاحة البخارية في نهر مجدلينا.

لقد مات دون بيو الخامس لوايثا عندما كان ابنه في العاشرة من العمر. ورغم انه كان يتولى دوماً أمر نفقاته سراً، فانه لم يعترف به أبداً كابن له أمام القانون، ولم يترك له ما يضمن مستقبله، وهكذا بقي فلورينتينو اريثا يحمل لقب امه فقط، مع ان حقيقة نسبه كانت معروفة للجميع. وبعد موت الوالد، كان على فلورينتينو اريثا ان يترك المدرسة ليعمل كمتمرن في وكالة البريد، حيث كانوا يكلفونه بفتح الأكياس وترتيب الرسائل، وإعلام الجمهور بوصول البريد عن طريق رفع راية البلد المرسل فوق باب المكتب.

ولقد لفتت حصافته انتباه عامل التلغراف، المهاجر الألماني لوتاريو توغوت، الذي كان يعزف الارغن أيضاً في حفلات الكتدرائية الكبيرة ويعطي دروساً في الموسيقى في البيوت. وعلمه لوتاريو توغوت منهاج رموز المورس وطريقة استخدام جهاز التلغراف، وكانت دروس الكهان الأولى كافية ليتابع فلورينتينو اريثا العزف السماعي كمحترف. عندما تعرف على

فيرمينا دازا، وهو في الثامنة عشرة من عمره، كان اكثر الشبان شهرة في وسطه الاجتماعي، فهو أفضل من يرقص على انغام الموسيقى الدارجة ويلقي القصائد العاطفية التي يحفظها عن ظهر قلب، كما كان دوماً رهن طلب اصدقائه الذين يريدون من يعزف لهم سيرناد كمان منفرد تحت شرفات خطيباتهم. كان نحيلاً منذ ذلك الحين، له شعر هندي يبسطه بمرهم ذي رائحة، ويضع نظارة قصر النظر التي تضاعف من حدة مظهره المخذول. واضافة إلى قصر النظر، كان يعاني من امساك مزمن اضطره إلى استخدام الحقن الشرجية الملينة طوال حياته. كانت لديه بدلة احتفالية واحدة، ورثها عن ابيه المتوفى، لكن ترانسيتو اريثا كانت تحافظ عليها جيداً بحيث تبدو جديدة في كل يوم أحد. وبالرغم من هزاله، وعزلته، وطريقة لبسه الكئيبة، فان فتيات مجموعته كن يضربن قرعة سرية ليلعبن لعبة البقاء معه، وكان هو نفسه يلعب ليبقى معهن، حتى اليوم الذي تعرف فيه على فيرمنيا دازا وانتهت براءته.

لقد رآها للمرة الأولى في عصر يوم كلفه فيه لوتاريو توغوت بايصال برقية إلى شخص بلا عنوان واضح اسمه لورينثو دازا، وجده في منطقة حديقة البشارة، في واحد من أقدم البيوت، شبه مهدم، وفناؤه الداخلي يبدو كفناء دير، فيه شجيرات كثيفة في الاجزاء المزروعة ونافورة حجرية بلا ماء. لم يشعر فلورينتينو اريثا بأي صوت ادمي وهو يتبع الخادمة الحافية تحت قناطر الممر، حيث كانت توجد صناديق امتعة لم تفتح بعد، ومواد بناء بين بقايا الجص والاسمنت المتراكم، لقد كانوا يقومون باصلاح شامل للبيت. وفي نهاية الممر كانت توجد غرفة مكتب مؤقت، حيث كان ينام القيلولة وهو جالس وراء الطاولة رجل بدين جداً له سوالف طويلة مجعدة تختلط بشاربيه. وكان اسمه فعلاً لورينثو دازا، ولم يكن معروفاً تماماً في المدينة لانه وصلها منذ أقل من سنتين، ولم يكن رجلاً ذا صداقات كثيرة.

تلقى البرقية كما لو انها استمرار لحلم مشؤوم، ولاحظ فلورينتينو اريثا العينين الزرقاوين الضاربتين إلى السواد بنوع من الشفقة الرسمية، والاصابع المرتعشة تحاول تفتيت شمع الختم، وخوف القلب الذي رآه مرات كثيرة على وجوه الذين يتلقون البرقيات ممن لم يعتادوا بعد على التفكير بالبرقيات دون ان يربطوها بالموت. عندما قرأها استعاد السيطرة على نفسه. تنهد: «أخبار حسنة». ومنح فلورينتينو اريثا خمس ريالات، موضحاً له بابتسامة مطمئنة انه ما كان سيعطيه النقود لو ان الاخبار كانت سيئة. ثم ودعه مصافحاً، وهي ليست عادة شائعة في معاملة موزع البرقيات، ورافقته الخادمة حتى الباب المؤدي إلى الشارع، ليس ذلك لارشاده بقدر ما هو لمراقبته. سارا في نفس الطريق باتجاه معاكس عبر الممر المقنطر، لكن فلورينتينو اريثا أدرك هذه المرة بان هناك أحداً في البيت، لان ضوء البهو كان مفعماً بصوت امرأة تردد درس قراءة، ولدى مروره مقابل حجرة الخياطة رأى عبر النافذة امرأة مسنة وصبية، تجلسان على مقعدين متجاورين، وكلاهما تتابعان القراءة في الكتاب ذاته الذي تحمله المرأة مفتوحاً في حضنها. بدا له الأمر كرؤيا غريبة: الابنة تعلم امها. كان تقديره خاطئاً جزئياً، لان المرأة هي عمة الصبية وليست أمها، رغم انها ربتها كما لو كانت أمها. لم يتوقف الدرس، لكن الصبية رفعت نظرها لترى من الذي يمر عبر النافذة، وكانت هذه النظرة العابرة أصل كارثة حب لم تنته بعد مرور نصف قرن من الزمان.

الشيء الوحيد الذي استطاع فلورينتينو اريثا ان يتحراه عن لورينثو دازا هو انه قدم من سان خوان دي لا ثييناغا مع ابنته الوحيدة وشقيقته العزباء بعد فترة قصيرة من جائحة الكوليرا، والذين رأوه ينزل إلى البر لم يراودهم الشك بانه قد جاء ليقيم، اذ كان يحضر معه كل ما يحتاجه بيت حسن التجهيز. كانت زوجته قد توفيت فيما ابنته لاتزال طفلة صغيرة. واسم اخته اسكولاستيكا، ولها من العمر اربعين سنة وهي تفي نذراً بلبس مسوح القديس سان فرانشيسكو عند خروجها إلى الشارع، وتكتفي بربط حبل الطائفة على خصرها فقط حين تكون في البيت. أما الصبية فعمرها ثلاث عشرة سنة وتدعى باسم امها الميته نفسه: فيرمينا.

كان يُفترض ان لورينثو دازا رجل ذو موارد، لانه يعيش في بحبوحة دون ممارسة مهنة معروفة، وقد اشترى نقداً بيت البشارة غير المكتمل، والذي كان اصلاحه يتطلب على الأقل ضعف المائتي بيزو ذهبية التي دفعها ثمناً له. وكانت الابنة تدرس في مدرسة ظهور العذراء المقدسة، حيث كانت تتعلم آنسات المجتمع الراقي منذ قرون فن ومهنة التحول إلى زوجات مدبرات ومطيعات. في العهد الاستعماري وخلال السنوات الجمهورية الأولى كانوا لا يقبلون في المدرسة إلا وارثات الألقاب الكبيرة فقط. ثم اضطرت العائلات القديمة المنهارة بفعل الاستقلال إلى الخضوع لوقائع الازمنة الجديدة ففتحت المدرسة ابوابها لجميع المتقدمات اللواتي يستطعن دفع نفقاتها، دون الاهتمام بانسابهن، والشرط الوحيد الجوهري الذي بقي قائماً هو ان يكن بنات شرعيات لزواج كاثوليكي. لقد كانت مدرسة غالية التكاليف على أية حال، ومجرد كون فيرمينا دازا تدرس هناك هو بحد ذاته مؤشر على الوضع المادي للعائلة، وان لم يكن مؤشراً على وضعها الاجتماعي. لقد شجعت هذه الأخبار فلورينتينو اريثا، اذ اوضحت له ان الصبية الجميلة ذات العينين اللوزيتين كانت في متناول أحلامه. ولكن سرعان ما ظهر نظام ابيها الصارم كعائق لا سبيل الى تجاوزه. فعلى العكس من التلميذات الاخريات، اللواتي كن يذهبن إلى المدرسة في مجموعات أو برفقة خادمة متقدمة في السن، كانت فيرمينا دازا تمضي دوماً مع عمتها العزباء، وكان سلوكها يشير الى

انه ليس مسموحاً لها بأي نوع من اللهو.

وهكذا كان أن بدأ فلورينتينو اريثا حياته الصامتة بقلب مكبوت. كان يجلس منذ الساعة السابعة صباحاً وحيداً على اقل مقاعد الحديقة ظهوراً للعيان، متظاهراً بقراءة ديوان شعر في ظل أشجار اللوز، إلى ان يرى مرور الصبية المستحيلة بزيها المدرسي ذي الخطوط الزرقاء، وجرابها ذي الرباط الذي يصل حتى الركبتين، وحذائها الرجالي برباطه المتقاطع، وبضفيرة وحيدة ثخينة مربوطة في طرفها بشريط ومتدلية على الظهر حتى خصرها. كانت تمشي بكبرياء طبيعي، رأسها مرفوع، ونظرها ثابت، وخطوتها سريعة، وانفها شامخ، وحقيبة كتبها المدرسية مضغوطة بيديها المتصالبتين على صدرها، وبمشية غزالة تجعلها تبدو محصنة على الرصانة. والى جانبها، تمضي شادة خطواتها بصعوبة، عمتها بمسوحها البني وحزام طائفة سان فرانثيسكو، بحيث لا تترك ادنى ثغرة للاقتراب. كان فلورينتينو اريثا يراهما تمران في الذهاب والاياب أربع مرات في اليوم، ومرة واحدة أيام الآحاد عند الخروج من القداس الكبير، وكانت رؤية الصبية تكفيه. وشيئاً فشيئاً، أخذ يرسم لها في مخيلته صورة مثالية، بمشاعر خيالية، وبعد مرور اسبوعين لم يعد يفكر بأي شيء سواها. وهكذا فكر بان يبعث لها رسالة مكتوبة على ورقة بخطه الرائع كخطاط. لكنه احتفظ بها عدة أيام في جيبه، مفكراً بطريقة لتسليمها اليها، وفيما هو يفكر كان يكتب عدة ورقات جديدة قبل ان ينام، بحيث أخذت الرسالة الاصلية تتحول إلى معجم في الغزل المتأثر بالكتب التي حفظها غيباً لكثرة ما قرأها وهو ينتظر في الحديقة.

وفي بحثه عن وسيلة لايصال الرسالة، حاول التعرف على بعض تلميذات المدرسة، لكنهن كن بعيدات جداً عن عالمه. كما بدا له بعد تفكير طويل انه ليس من الحكمة اطلاع أحد على نواياه. ورغم ذلك، توصل لان يعرف ان فيرمينا داثا كانت قد دعيت إلى حفلة رقص من حفلات السبت بُعيد مجيئها إلى البلدة، وان أباها لم يسمح لها ان تذهب متعللاً بعبارة حاسمة: «كل شيء في وقته المناسب». أصبحت الرسالة تضم اكثر من ستين ورقة مكتوبة على الوجهين عندما لم يعد بمقدور فلورينتينو اريثا احتمال ضغط سره اكثر. ففتح قلبه دون تحفظ لأمه، وهي الشخص الوحيد الذي كان يبيح لنفسه مفاتحتها ببعض اسراره. انفعلت ترانسيتو اريثا حتى الدموع لسذاجة ابنها في شؤون الحب، وحاولت توجيهه بأنوارها. بدأت باقناعه بعدم تسليم المجلد الغنائي، الذي لن يتوصل من خلاله إلا إلى افزاع فتاة أحلامه، التي يُفترض بانها ليست ذات خبرة في أمور القلب مثله. وقالت له ان الخطوة الأولى هي جعلها تنتبه إلى اهتمامه بها، حتى لا يأخذها بالتصريح لها عن حبه على حين غرة ويكون لديها متسع من الوقت للتفكير.

وقالت له:

- ومن عليك الوصول اليها أولاً وقبل كل شيء هي العمة وليس الفتاة.

كلا النصيحتين كانت حكيمة دون شك، لكنهما جاءتا متأخرتين. فالواقع انه منذ اليوم الذي اهملت فيه فيرمينا داثا لبرهة قصيرة درس القراءة الذي كانت تلقنه لعمتها، ورفعت بصرها لترى من الذي يمر في الرواق، كان فلورينتينو اريثا قد أثر فيها بمظهره المخذول. وفي الليل، اثناء تناول الطعام. تحدث والدها عن البرقية، وهكذا كان ان عرفت ما الذي جاء يفعله فلورينتينو اريثا في البيت، وما هي مهنته. وقد ضاعفت هذه المعلومات من اهتمامها، اذ كان اختراع التلغراف بالنسبة لها، كما هو بالنسبة لاناس كثيرين في تلك الحقبة، أمراً له علاقة بالسحر. وهكذا تعرفت على فلورينتينو اريثا منذ المرة الأولى التي رأته فيها يقرأ تحت أشجار الحديقة، ورغم انه لم يثر فيها أي نوع من القلق إلى ان لفتت العمة نظرها إلى انه كان يجلس هناك منذ عدة اسابيع. وعندما رأتاه فيما بعد اثناء الخروج من القداس، ترسخت قناعة العمة بان كل هذه اللقاءات لا يمكن ان تكون مصادفة، وقالت: «ليس من أجلي يحتمل هذا الازعاج». اذ رغم سلوكها الصارم ومسوح العفة التي تتسربل به، كانت العمة اسكولاستيكا تحمل غريزة الحياة وتميل إلى المشاركة فيها، وهما أفضل صفتين فيها. وبمجرد الفكرة بان هناك رجلاً مهتماً بابنة اخيها كان يثير فيها انفعالاً لا يقاوم. أما فيرمينا داثا فكانت ما تزال بمنجى حتى من مجرد الفضول بشأن الحب، الشيء الوحيد الذي اثاره فيها فلورينتينو اريثا هو قليل من الاسى، اذ بدا لها عليلاً. لكن العمة قالت لها انه لا بد من العيش طويلاً لمعرفة الطبيعة الحقيقية للرجل، وكانت مقتنعة ان ذاك الذي يجلس في الحديقة ليراهما تمران، لا يمكن إلا ان يكون مريضاً بداء الحب.

كانت العمة اسكولاستيكا ملجأ تفهم وعطف للابنة الوحيدة لزواج بلا حب. لقد ربتها منذ موت أمها، وبالمقارنة مع لورينثو داثا، كانت تتصرف كشريكة اكثر منها كعمة. وهكذا كان ظهور فلورينتينو اريثا بالنسبة لهما تسلية جديدة تضاف الى التسليات الكثيرة التي تبتدعانها لتمضية وقتهما الميت. أربع مرات في اليوم، كلما اجتازتا حديقة البشارة، كانتا تسرعان للبحث بنظرة فورية عن ذلك الحارس الضامر، الخجول، ضئيل الشأن، والذي يرتدي بشكل شبه دائم ملابس سوداء، رغم الحر، ويتظاهر بالقراءة تحت الاشجار. «ها هو هناك»، تقول التي تكتشفه اولاً، كاتمة ضحكتها، قبل ان يرفع نظره ويرى المرأتين الصارمتين، البعيدتين عن حياته، وهما تجتازان الحديقة دون ان تنظرا اليه.

قالت العمة في احدى المرات:

ـ ياللمسكين. لا يجرؤ على الاقتراب لانني معك، لكنه سيحاول ذلك يوماً اذا كانت نواياه جدية، وعندها سيسلمك رسالة.

واحتياطاً لاي نوع من المصائب علمتها التواصل بحروف يدوية، وكانت تلك وسيلة ضرورية للغراميات المحرمة. وقد اثارت المشاوير العرضية، وشبه الصبيانية، فضول فيرمينا داثا إلى الجديد، ولكن لم يخطر لها أبداً طوال عدة شهور ان تمضي إلى أبعد من ذلك. لم تعرف أبداً متى بدأت تسليتها تتحول إلى قلق، ويتحول دمها إلى زبد للاسراع برؤيته، وقد استيقظت في احدى الليالي مذعورة لانها رأته يتأملها في الظلام من طرف السرير. عندئذ تمنت من اعماقها ان تتحقق تكهنات العمة، وصارت تدعو الله في صلواتها ان يمنحه الشجاعة كي يسلمها الرسالة، لتعرف فقط ما الذي سيقوله فيها.

لكن دعواتها لم تُستجب، وكانت الوقائع معاكسة لذلك. حدث هذا في الفترة التي صارح فيها فلورينتينو أريثا امه وثنته هذه عن عزمه بتسليم السبعين ورقة من الغزل، وهكذا كان على فيرمينا داثا ان تتابع الانتظار بقية تلك السنة. أخذ قلقها يتحول إلى يأس كلما اقتربت عطلة كانون الأول المدرسية، اذ أخذت تتساءل عما ستفعله لتراه ويراها، خلال الشهور الثلاثة التي لن تذهب خلالها إلى المدرسة، وقد ألحت عليها الشكوك دون أن تجد لها حلاً في ليلة الميلاد، حين هزها احساس بانه ينظر اليها بين جموع المصلين في القداس، ولقد اثار هذا القلق في قلبها. ولم تكن لتجرؤ على الالتفات وهي تجلس بين أبيها وعمتها، وكان عليها ان تكبح نفسها كي لا يلاحظا اضطرابها. ولكنها أحست به في فوضى الخروج قريباً جداً منها، وواضحاً جداً وسط الحشد، ودفعتها قوة لا تقاوم للنظر من فوق كتفها وهي تغادر المعبد من الممر الأوسط، ورأت حينئذ على بعد شبرين من عينيها العينين الاخريين الجليديتين، والوجه الملوح، والشفتين المتحجرتين برعب الحب. اضطربت لجسارتها، وتشبثت بذراع العمة اسكولاستيكا كي لا تسقط على الأرض، فأحست هذه بالعرق البارد على اليد عبر القفاز المخرم، وشجعتها باشارة موافقة لا مشروطة خفية. ووسط دوي الألعاب النارية والطبول، وسط أعمدة الانارة الملونة المنصوبة أمام الأبواب، وصخب الجموع المتعطشة للسلام، هام فلورينتينو اريثا كمن يسير وهو نائم حتى الفجر مراقباً الاحتفال من خلال دموعه، ومذهولاً في التخيل بانه هو، وليس الرب، من ولد في تلك الليلة.

ازداد هذيانه في الاسبوع التالي، حين مر وقت القيلولة ببيت فيرمينا داثا دون امل. ورآها تجلس مع عمتها تحت أشجار اللوز في الفناء. كان المشهد تكراراً للوحة التي رآها في مساء اليوم الأول في حجرة الخياطة: الصبية تلقن العمة درس القراءة. لكن فيرمينا داثا كانت مختلفة الهيئة وهي بدون زيها المدرسي، اذ كانت ترتدي عباءة من الكتان الأبيض بها ثنايا

كثيرة تنسدل من كتفيها وكأنها رداء اغريقي، وعلى رأسها اكليل من ازهار الياسمين الطبيعية يمنحها مظهر إلهة متوجة. جلس فلورينتينو اريثا في الحديقة، حيث تأكد انه سيكون مرئياً، ولم يلجأ عندئذ إلى اسلوب التظاهر بالقراءة، وانما جلس، والكتاب مفتوح، مركزاً بصره على الآنسة السامية، التي لم تبادله ولو نظرة شفقة.

ظن في البدء ان الدرس تحت أشجار اللوز هو تغيير طارىء، ربما بسبب الاصلاحات التي لا تنتهي في البيت، لكنه أدرك في الايام التالية ان فيرمينا داثا ستكون هناك، تحت نظره، في مساء كل يوم وفي الساعة ذاتها طوال شهور العطلة الثلاثة، وألهمه هذا اليقين حماسة جديدة. لم يشعر بانها رأته، ولم يلمح أية علامة تدل على اهتمام أو اهمال. ولكن في لامبالاتها كان ثمة بريق مختلف شجعه على المثابرة. وفجأة، في عصر يوم من أيام كانون الثاني، وضعت العمة شغلها على الكرسي وتركت ابنة اخيها وحدها في الفناء بين نثارة الأوراق الصفراء المتساقطة من أشجار اللوز. ومدفوعاً باعتقاده المتهور بانها الفرصة المناسبة، اجتاز فلورينتينو اريثا الشارع وانتصب أمام فيرمينا داثا، قريباً جداً منها بحيث شعر بشهقتها وبتنفسها الوردي الذي سيميزها فيه طوال حياته المتبقية. حدثها برأس مرفوع وبتصميم لن يصل اليه ثانية إلا بعد نصف قرن ولنفس السبب.

قال لها:

ـ الشيء الوحيد الذي اطلبه منك هو أن تتقبلي رسالة مني.

لم يكن الصوت الذي انتظرته فيرمينا داثا منه: كان صوتاً واثقاً ومتسلطاً لا علاقة له باساليبه الخاملة. ودون ان ترفع نظرها عن التطريز، اجابته: «لا استطيع قبولها دون اذن والدي». ارتعش فلورينتينو اريثا بدفء ذلك الصوت الذي لن ينسى جرسه المنطفىء طوال حياته. لكنه استمر على ثباته، ورد في الحال: «احصلي على الاذن». ثم رقق من لهجة الأمر برجاء: «انها مسألة حياة أو موت». لم تنظر فيرمينا داثا اليه، ولم تتوقف عن التطريز، لكن قرارها فتح له باباً يتسع للعالم باسره، حين قالت له:

ـ عد مساء كل يوم وانتظر إلى ان أبدل مقعدي.

لم يفهم فلورينتينو اريثا ما عنته حتى يوم الاثنين من الاسبوع التالي، عندما رأى وهو على مقعده في الحديقة نفس المشهد الذي يراه كل يوم مع تبدل وحيد: حين دخلت العمة اسكولاسيكا إلى البيت، نهضت فيرمينا داثا وجلست على المقعد الآخر. عندئذ اجتاز فلورينتينو اريثا الشارع وهو يضع زهرة كاميليا بيضاء في عروة سترته، وانتصب امامها. قال: «هذه هي اعظم لحظة في حياتي». لم ترفع فيرمينا داثا نظرها اليه، وانما تفحصت الجوار نظرة دائرية ورأت الشوارع المقفرة في سبات الجفاف وزوبعة أوراق ميتة تتقاذفها الريح.

فقالت:

- اعطني اياها.

كان فلورينتينو اريثا قد فكر بان يحمل اليها الورقات السبعين التي صار قادراً على استظهارها من الذاكرة لكثرة ما أعاد قراءتها، لكنه حسم أمره بعد ذلك بالاكتفاء بنصف ورقة مختصرة وواضحة يعاهدها فيها على ماهو جوهري فقط: وفاؤه تحت اية ظروف، وحبه الابدي. أخرجها من جيب سترته الداخلي، ووضعها أمام عيني المُطرزة الحزينة التي لم تتجرأ حتى ذلك الحين على النظر اليه. رأت المغلف الأزرق يرتعش في يد جمدها الرعب، ورفعت طارة التطريز ليضع الرسالة، اذ انها غير قادرة على السماح له برؤية ارتعاش أصابعها. وحدث حينئذ ان ارتعش عصفور بين أوراق أشجار اللوز، وأفلت في الوقت ذاته ذرقة على التطريز. فأبعدت فيرمينا داثا الطارة، وخبأتها وراء المقعد كي لا ينتبه لما حدث، ونظرت اليه للمرة الأولى بوجه ملتهب. فقال فلورينتينو اريثا المتجمد والرسالة في يده: «ان هذا فأل خير». شكرته بابتسامتها الأولى اليه، وانتزعت منه الرسالة، ثم طوتها واخفتها في صدريتها. قدم لها حينئذ زهرة الكاميليا التي كنت في عروته، فرفضتها: «انها زهرة التزام». وعادت فوراً للاختباء في رصانتها، وقد وعت ان الوقت قد نفد.

قالت:

- اذهب الآن ولا ترجع إلى أن أخبرك.

عندما رأها فلورينتينو اريثا لأول مرة، اكتشفت امه ذلك قبل ان يخبرها، لانه فقد النطق والشهية وراح يقضي الليالي مسهداً يتقلب في الفراش. لكنه حين بدأ ينتظر الرد على رسالته الأولى، تضاعف الجزع وتحول إلى اختلاطات مترافقة مع براز وقيء أخضرين، وفقد القدرة على التوجه وعانى من اغماءات مفاجئة، ففزعت أمه لان حالته لا تنتمي إلى اضطرابات الحب وانما إلى اختلاطات الكوليرا. وكذلك عراب فلورينتينو اريثا، وهو طبيب مثليّ عجوز، وامين اسرار ترانسيتو داثا مذ كانت عشيقة سرية، فزع أيضاً للوهلة الأولى من حالة المريض، لان نبضه كان ضعيفاً وتنفسه رملياً وعرقه شاحباً كحالة المحتضرين. لكن الفحص كشف له عدم وجود حمى، ولا آلام في أي موضع، والشيء الوحيد الذي كان يشعر به هو حاجة مستعجلة للموت. واكتفى باستجواب مخاتل، للابن أولاً ثم للأم، ليتأكد مرة اخرى ان أعراض الحب هي نفس اعراض الكوليرا. فوصف له نقيع ازهار الزيزفون لتتماسك أعصابه واقترح عليه تغيير الجو للبحث عن العزاء في البعد، لكن ما كان يشتاقه فلورينتينو اريثا هو عكس ذلك تماماً: الاستمتاع بعذابه.

كانت انسيتر اريثا امرأة اربعينية حرة، لديها ميل محبط إلى السعادة بفعل الفقر، وكانت

تشارك في آلام ابنها كما لو انها آلامها، فهي تقدم له المشروبات المهدئة حين تلاحظ انه أخذ يهذي أو تدثره بأغطية صوفية لتخدع القشعريرة التي تنتابه، لكنها تشجعه في الوقت ذاته على التسلية بانهاك نفسه، فهي تقول له:

- انتهز الفرصة لتتألم بقدر ما تستطيع الآن وأنت شاب، لأن هذه الأمور لا تدوم طول الحياة.

أما في وكالة البريد فلم يكونوا يفكرون بهذه الطريقة طبعاً. اذ كان فلورينتينو اريثا يهمل في عمله، ويمضي ساهياً فيخلط بين الأعلام التي يعلن بها عن وصول البريد، ففي أحد أيام الأربعاء رفع العلم الألماني بينما كانت السفينة القادمة تابعة لشركة ليلاند وتحمل بريد ليفربول، وكان يرفع في اي يوم آخر علم الولايات المتحدة مع ان السفينة القادمة تتبع لشركة جنرال ترانساتلانتك وتحمل بريد سانت - نازير. وقد كانت تشوشات الحب تلك تسبب تأخيراً في توزيع البريد وتثير احتجاجات كثيرة من جانب الجمهور، واذا كان فلورينتينو اريثا لم يطرد من عمله فلأن لوتاريو توغوت احتفظ به في قسم التلغراف وأخذه ليعلمه العزف على الأرغن في كورال الكتدرائية. كانا يرتبطان بحلف عصي على الفهم بسبب فارق السن بينهما، اذ كان بالامكان اعتبارهما جداً وحفيداً، لكن علاقتهما كانت حسنة جداً سواء في العمل أم في حانات الميناء، حيث يلتقي محبو السهر حتى ساعة متأخرة من الليل دون وساوس طبقية، اعتباراً من سكارى الصدقات وحتى الشبان الراقين ذوي الملابس البر وتوكولية الذين يهربون من حفلات النادي الاجتماعي ليأكلوا فطائر الجبن المقلية مع ارز جوز الهند. لقد اعتاد لوتاريو توغوت الذهاب إلى هناك بعد وردية التلغراف الأخيرة، وكان يدركه الصباح في معظم الأحيان وهو ما يزال يشرب البنوش الجمايكي ويعزف الاوكورديون مع طواقم ملاحي سفن جزر الانتيل الحمقى. كان بديناً، يشبه السلحفاة، له لحية مذهبة ويضع لدى خروجه ليلاً طاقية من تلك التي تمثل رمز الجمهورية الفرنسية، ولم يكن ينقصه إلا درع مضيء ليصبح مشابهاً تماماً للقديس نيقولا. وكان يجهز مرة واحدة كل اسبوع على الأقل على واحدة من عصفورات الليل، كما اعتاد تسمية أولئك اللواتي يبعن الحب لطارىء في فندق للعابرين من البحارة. وكان أول ما فعله بشيء من اللذة المتقنة، حين تعرف على فلورينتينو اريثا، هو تعريفه على اسرار فردوسه. كان يختار له العصفورات اللواتي يبدون له أفضل من سواهن، ويساومهن في السعر والطريقة، ثم يعرض عليه ان يدفع له من ماله الخاص مقابل الخدمات التي يقدمنها. لكن فلورينتينو اريثا لم يكن يوافق: كان في عذريته، ولقد قرر ان يبقى كذلك مالم يفعل ذلك عن حب.

كان الفندق عبارة عن قصر استعماري متهاو، قسمت صالوناته الكبيرة وغرف المرمر فيه إلى مخادع صغيرة بورق مقوى مليء بثقوب أحدثتها المطاوي، وكانت تؤجر لممارسة الحب أو للتفرج على من يمارسه. وثمة احاديث تدور عن متلصص سملوا له عينه بمسلة حياكة، وعن آخر تعرف على زوجته بالذات فيما هو يتلصص، وعن نبلاء من الطبقة الراقية كانوا يتنكرون بزي بائعات خضار ليغرقوا انفسهم مع العسكريين العابرين، وعن حوادث اخرى حول متلصصين ومتلصص عليهم، مما جعل مجرد التفكير بالنظر إلى الحجرة المجاورة أمراً مرعباً بالنسبة لفلورينتينو اريثا. ولم يتمكن لوتاريو توغوت من اقناعه بان الرؤية والسماح للاخرين بالمشاهدة هي من آداب امراء اوروبا.

وعلى العكس من الاعتقاد الذي قد تثيره بدانته، كانت للوتاريو توغوت دوامة شاروبيم تبدو وكأنها برعم وردة، ويبدو ان هذا كان عيباً حسن الطالع، لان اكثر العصفورات استعمالاً كن يتنازعن النوم معه، وكانت صراخاتهن المذبوحة تهز ادراج القصر. وتبعث رعشة الرهبة في اشباحه. كان يقال بانه يستخدم مرهماً محضراً من سم الثعابين يلهب به ارحام النساء، لكنه كان يقسم بانه لا يملك أية وسائل سوى تلك التي وهبه الله اياها. كان يقول منفجراً بالضحك: «انه الحب وحده». وكان لا بد من انقضاء سنوات طويلة ليدرك فلورينتينو اريثا بانه ربما كان يقول الصدق. ثم انتهى إلى الاقتناع من خلال تربيته العاطفية في زمن متأخر، حين تعرف على رجل يعيش، حياة ملك باستغلاله ثلاث نساء في الوقت ذاته. كانت النساء الثلاث يقدمن له الحساب في الفجر، ذليلات عند قدميه ليغفر لهن احتفاظهن بمبالغ زهيدة، والمكافأة الوحيدة التي كن يرغبن فيها هي قبوله الاضطجاع مع من تأتيه بأكبر قدر من المال. وكان فلورينتينو اريثا يعتقد بان الخوف وحده قادر على ايصالهن إلى مثل هذا الذل. لكن احدى الفتيات الثلاث فاجأته بالحقيقة المعاكسة حين قالت له:

- ان هذه الأمور لا يمكن تحقيقها إلا بالحب.

ولم يكن السبب في توصل لوتاريو توغوت لان يكون أحد أهم زبائن الفندق هو فجوره، بقدر ما كان ظرافته الشخصية. ولقد كسب فلورينتينو اريثا كذلك احترام صاحب المحل لكونه صموتاً ومرناً، وقد اعتاد في اقسى مراحل كربه ان يحبس نفسه ليقرأ الاشعار وكتيبات الدموع في الحجرات الخانقة، وكانت احلامه تخلف أعشاش سنونوات سوداء على الشرفات وهمس قبلات وخفق أجنحة في خمود الظهيرة. وفي المساء، حين يخف الحر، كان يستحيل عليه ألا يستمع إلى أحاديث الذين يأتون لاغراق انفسهم من العمل في حب سريع، وهكذا أصبح فلورينتينو اريثا يعرف خيانات زوجية كثيرة، بل وبعض اسرار الدولة، من الزبائن المرموقين، ومن رجال السلطات المحلية الذين كانوا يأتمنون عشيقاتهم العابرات دون ان يحتاطوا كي لا يسمعهم من هم في الغرف المجاورة. وكان هكذا ان علم أيضاً بانه على بعد أربعة فراسخ بحرية إلى الشمال من سوتافينتو ترقد غارقة، في قاع البحر منذ القرن السابع عشر، سفينة اسبانية محملة بأكثر من خمسمئة ألف مليون بيزو من الذهب الخالص والاحجار الكريمة. لقد اذهلته القصة، لكنه لم يعد للتفكير فيها إلا بعد مضي عدة شهور، عندما اثار جنون الحب شوقه لاستخراج الثروة الغارقة كي يجعل فيرمينا داثا تستحم في أحواض من الذهب.

بعد سنوات من ذلك، حين كان يحاول ان يتذكر كيف كانت في الواقع تلك الصبية التي رسم لها في ذهنه صورة مثالية بسيمياء الشعر، لم يكن يستطع تمييز ملامحها وسط امسيات تلك الازمنة المؤثرة، وحتى حين كان يلمحها دون ان تراه، في ايام الجزع التي انتظر فيها الرد على رسالته الأولى، كان يراها بصورة مختلفة في وهج الساعة الثانية ظهراً تحت وابل من زهر اللوز، حيث كان الوقت نيساناً في أي شهر من شهور السنة. كان اهتمامه الوحيد في ذلك الحين منصباً على مرافقة لوتاريو توغوت بالكمان على المنصة المخصصة للكورال، وذلك ليرى كيف تتموج عباءتها بنسيم الانشاد. لكن هذيانه بالذات كان السبب في القضاء على متعته هذه، اذ أصبحت الموسيقى الدينية الصوفية مناسبة جداً لحالة روحه، مما جعله يحاول الهابها بفالسات حب، ورأى لوتاريو توغوت نفسه مضطراً لطرده من الكورال. وكان ان استسلم في هذه الفترة لأكل ازهار الياسمين التي كانت تزرعها ترانسيتو اريثا في احواض الفناء فتعرف بهذه الطريقة على طعم فيرمينا داثا. وفي هذه الفترة أيضاً وجد في قاع احد صناديق أمه زجاجة تحتوي لتراً من ماء الكولونيا التي كان يبيعها مهربة بحارة شركة هامبورغ اميركان لاين، ولم يقاوم اغراء تذوقها للبحث فيها عن طعم آخر للمرأة المحبوبة. وتابع شرب الزجاجة حتى الفجر، منتشياً بفيرمينا داثا من خلال رشفات كاوية، في حانات الميناء أولاً ثم إلى جوار البحر بعد ذلك وهو غائب عن الوعي فوق ملطم الامواج حيث يتعزى العشاق الذين لا سقف لديهم بممارسة الحب، إلى ان راح في غيبوبة. انتظرته ترانسيتو اريثا حتى الساعة السادسة صباحاً بروح معلقة في خيط، ثم مضت تبحث عنه في المخابيء التي لا تخطر ببال احد، وبعيد منتصف الليل وجدته يتخبط في بركة من القيء المعطر في احدى تعرجات الشاطيء حيث يقذف البحر الغرقى.

انتهزت فترة النقاهة لتؤنبه على سلبيته في انتظار الرد على الرسالة. ذكرته بانه لا يمكن للضعفاء دخول مملكة الحب، لانها مملكة قاسية وصارمة، وان النساء لا يستسلمن إلا للرجال المصممين، لانهم يبعثون فيهن الطمأنينة التي يتعطشن اليها لمواجهة الحياة. وربما استوعب فلورينتينو اريثا الدرس اكثر مما ينبغي. فلم تستطع ترانسيتو اريثا اخفاء احساسها بالفخر،

كقوادة اكشرة منها كأم، حين رأته يخرج من دكان الخردوات بالبدلة السوداء والقبعة القاسية وربطة الشاعر على الياقة الصلبة، فسألته مازحة ان كان ذاهباً إلى جنازة فأجاب وأذناه تتقدان: «يكاد الامر يكون سواء». وقد انتبهت إلى انه يكاد لا يستطيع التنفس من الخوف، لكن تصميمه كان حاسماً. قدمت له النصائح النهائية، وباركته، ووعدته وهي غارقة في الضحك بزجاجة اخرى من ماء الكولونيا ليحتفلا معاً بانتصاره.

مذ سلم الرسالة، قبيل شهر، نقض عدة مرات الوعد الذي قطعه بعدم العودة إلى الحديقة، لكنه كان حذراً جداً في التخفي. كل شيء كان يسير على حالة: ينتهي درس القراءة تحت الاشجار في حوالي الثانية ظهراً، حين تستيقظ المدينة من القيلولة، ثم تتابع فيرمينا داثا التطريز مع عمتها حتى انخفاض الحر. لم ينتظر فلورينتينو اريثا إلى ان تدخل العمة إلى البيت، بل اجتاز الشارع بخطوات عسكرية اتاحت له تجاوز ارتعاش ركبتيه. لكنه لم يتوجه إلى فيرمينا داثا وانما الى العمة.

قال لها:

ـ تفضلي واتركيني على انفراد مع الآنسة للحظة، فلدي شيء هام أود ان أقوله لها.

فقالت العمة:

ـ وقح! لا يوجد أمر من أمورها لا أستطيع سماعه.

قال:

ـ لن أقول شيئاً اذن، لكنني أحذرك بانك ستكونين المسؤولة عما سيحدث.

لم يكن هذا هو الاسلوب الذي انتظرته اسكولاستيكا داثا من العريس المثالي، لكنها نهضت مرتعبة، لانها أحست لأول مرة باحساس مفاجيء ان فلورينتينو اريثا انما كان يتكلم بوحي من الروح القدس. وهكذا دخلت الى البيت لاستبدال ابر التطريز، وتركت الشابين وحدهما تحت أشجار اللوز عند مدخل البيت.

لم تكن فيرمينا داثا تعرف في الواقع إلا القليل عن معدن العاشق الصامت الذي ظهر في حياتها مثل سنونوة شتوية، والذي لم تكن تعرف حتى اسمه لولا توقيعه على الرسالة. ولقد استقصت حينئذ وعرفت انه ابن بلا أب لامرأة عزباء مجدة وجدية، لكنها موسومة بوسم ناري لاشفاء منه لخطيئتها الوحيدة وهي شابة. وقد علمت انه ليس صبي التلغراف، كما افترضت، وانما هو مساعد جيد التأهيل وذو مستقبل واعد، وفكرت بانه أوصل البرقية إلى أبيها كذريعة ليراها فقط. وقد فتنها هذا الافتراض. كما كانت تعرف انه واحد من موسيقي الكورال، رغم انها لم تتجرأ أبداً على رفع بصرها لتتأكد من وجوده اثناء القداس، إلا انها في

أحد أيام الآحاد وفيما مجموعة الآلات تعزف للجميع، أحست بان الكمان يعزف لها وحدها. لم يكن نموذجاً للرجل الذي كانت ستختاره. لكن نظارته وزيه الكهنوتي، واساليبه الغامضة اثارت فيها فضولاً من الصعب مقاومته، لكنها لم تتصور ابداً ان يكون الفضول هو أحد مصائد الحب الكثيرة.

هي نفسها لم تستطع ان تفهم كيف قبلت الرسالة. لم تؤنب نفسها، لكن وعدها الملح برد الجواب أخذ يتحول إلى عائق أمام الحياة. ان كل كلمة من ابيها، وكل نظرة عابرة، وادنى حركة يقوم بها كانت تبدو لها مصيدة لكشف سرها. على هذا الحال من الذعر كانت، فهي تمتنع عن الحديث على المائدة خوفاً من زلة تفضحها، واصبحت مراوغة حتى في تعاملها مع العمة اسكولاستيكا، رغم ان هذه كانت تشاطرها جزعها المكتوم كما لو كان خاصاً بها. وصارت تحبس نفسها في الحمام في أي وقت، دونما حاجة، وتعيد قراءة الرسالة محاولة اكتشاف رموز سرية، أو معادلة سحرية مخبأة في واحد من الثلاثمئة واربعة عشر حرفاً في الثماني وخمسين كلمة، على أمل ان تجد فيها اكثر مما تقوله. لكنها لم تجد شيئاً اكثر مما فهمته في القراءه الاولى، عندما هرعت لتحبس نفسها في الحمام بقلب مجنون، ومزقت المغلف آملة برسالة مطولة ومحمومة، ولم تجد سوى ورقة صغيرة معطرة أفزعها اقتضابها.

لم تفكر أول الامر جدياً بانها مجبرة على الرد، لكن الرسالة كانت واضحة جداً بحيث لم تكن هناك وسيلة لتصريفها. وفي اثناء ذلك، ووسط اضطراب شكوكها، فاجأت نفسها وهي تفكر بفلورينتينو اريثا اكثر وباهتمام اكبر مما تريده لنفسها، بل وكانت تتساءل مكدرة لماذا لم يأت إلى الحديقة في موعده المعتاد، دون ان تتذكر انها هي التي طلبت منه عدم الرجوع إلى ان تفكر بالرد. وهكذا صارت تفكر به بشكل لم تتصور يوماً انها ستفكر فيه بأحد، كانت تهجس به حيث لا يكون، متمنية وجوده حيث لايمكن ان يكون، مستيقظة فجأة يراودها احساس بانه يراقبها وهي نائمة في الظلام، لدرجة انها حين سمعت وقع خطواته الحاسمة فوق نثارة اوراق الحديقة الصفراء، لم تستطع ان تصدق انها ليست سخرية اخرى من خيالها. ولكن عندما طالبها بالرد على رسالته بتسلط لا علاقة له بنحافته، تمكنت من السيطرة على ذعرها وحاولت مداراته بقول الحقيقة: انها لاتعرف بماذا ترد عليه. ومع ذلك فان فلورينتينو اريثا لم ينج من هاوية ليتردد أمام التي تليها، فقال لها:

ـ اذا كنت قد قبلت استلام الرسالة، فمن قلة الذوق عدم الرد عليها.

كانت هذه هي نهاية المتاهة. فقد اعتذرت فيرمينا داثا، التي سيطرت على نفسها، عن تأخرها ووعدته رسمياً بانه سيحصل على الرد قبل انتهاء العطلة المدرسية. ووفت بوعدها. ففي يوم الجمعة الاخير من شهر شباط، وقبل ثلاثة أيام من اعادة افتتاح المدارس. ذهبت

العمة اسكولاستيكا إلى مكتب التلغراف لتسأل عن تكلفة ارسال برقية إلى قرية بيدرا دي مولير، التي لا يرد ذكرها في قائمة الخدمات البرقية، وسمعت لأن يتولى الرد على استفسارها فلورينتينو داثا، متظاهرة بانها لم تره أبداً من قبل، لكنها عند الخروج تعمدت ان تنسى على الطاولة كتاب صلوات مجلد بجلد ضب، فيه مغلف من ورق مبطن ومزين بصورة مذهبة.

أمضى فلورينتينو اريثا، الذي اختل من السعادة، بقية ذلك المساء وهو يأكل الورود ويقرأ الرسالة، ويراجعها حرفاً حرفاً مرة بعد اخرى، وكلما قرأ اكثر كان يأكل المزيد من الورد، وعند منتصف الليل كان قد قرأها مرات ومرات وأكل ورداً كثيراً جعل امه تشده من اذنه كخروف وتجبره على شرب زيت الخروع.

كانت تلك هي سنة الحب العنيف. ولم يكن في حياة اي منهما شيء سوى التفكير بالآخر، وانتظار الرسائل بشوق كشوق الرد عليها. ولم يحدث طوال ذلك الربيع من الهذيان، ولا في السنة التالية ان اتيحت لهما فرصة للتواصل بصوت عال. بل واكثر من ذلك: منذ ان رأيا بعضهما لأول مرة وإلى ان كرر عليها قراره بعد نصف قرن، لم يحصلا أبداً على فرصة للقاء منفردين ولا لتبادل الحديث عن حبهما. ولكن لم يمر يوم واحد خلال الشهور الثلاثة الاولى دون ان يتبادلا الرسائل، بل كان يكتبان لبعضهما الرسائل مرتين يومياً في احدى الفترات، الى ان فزعت العمة اسكولاستيكا لشراهة النار التي ساهمت هي نفسها في اضرامها.

بعد ان حملت الرسالة الأولى إلى مكتب التلغراف وكأنها تريد ان تثأر من حظها بالذات، راحت تسهل عملية تبادل الرسائل شبه اليومية، في لقاءات تبدو عرضية في الازقة، ولكن لم تكن تملك الشجاعة لرعاية تبادل حديث بينهما، مهما كان ذلك الحديث تافهاً وقصيراً. ثم ادركت بعد مرور ثلاثة شهور ان ابنة اخيها ليست مؤهلة لغرام فتي، كما بدا لها أول الامر، واصبحت حياتها هي مهددة بفعل نار الحب تلك. لم تكن لدى اسكولاستيكا بالفعل وسيلة اخرى للمعيشة سوى احسان اخيها، وكانت تعلم ان طبعه المتسلط لن يغفر لها أبداً تلاعباً كهذا بالثقة التي منحها اياها. ولكن قلبها لم يطاوعها في نهاية الأمر على تعريض ابنة اخيها لمحنة قاسية كالتي رعتها هي منذ شبابها، فسمحت لها باستخدام وسيلة تمنحها وهم الاحساس بالبراءة. وكانت وسيلة بسيطة: تضع فيرمينا دثا رسالتها في مخبأ في طريقها اليومي بين البيت والمدرسة، وفي هذه الرسالة تخبر فلورينتينو اريثا عن المكان الذي ستجد الجواب فيه. ثم يفعل فلورينتينو اريثا الشيء ذاته، وهكذا أخذ تأنيب الضمير الذي كانت تحسه العمة اسكولاستيكا ينتقل إلى زوايا الكنائس، وفجوات الأشجار، وشقوق انقاض الحصون الاستعمارية، كانا يجدان الرسائل مبللة بالمطر أحياناً، او ملوثة بالوحل، او ممزقة لضيق

الفجورة، كما فُقدت بعض الرسائل لاسباب مختلفة، لكنهما كانا يجدان دوماً وسيلة لاعادة الاتصال.

كان فلورينتينو اريثا يكتب كل ليلة دون ان تأخذه رحمة بنفسه، متسمماً حرفاً فحرفاً بدخان مصباح زيت الكوروزو في القسم الخلفي من دكان الخردوات، وكانت رسائله تصبح أكثر اسهاباً وجنوناً كلما أجهد نفسه في محاكاة شعرائه المفضلين الذين تنشر اعمالهم في سلسلة المكتبة الشعبية، التي وصل عدد اجزائها في ذلك الحين إلى اكثر من ثمانين مؤلفاً. أما أمه التي حثته على التمتع في عذابه، فأخذت تصاب بالذعر لاعتلال صحته، وصارت تصيح به من غرفة النوم عندما تسمع صياح أول الديكة: «ستستنزف دماغك. ليس من امرأة تستحق كل هذا.» فهي لا تذكر انها عرفت أحداً بمثل هذه الحالة من الضياع. أما هو فلم يكن يعيرها اهتماماً. كان يصل إلى المكتب أحياناً دون ان يكون قد نام، شعره مشعث من الحب، بعد ان يكون قد اودع الرسالة في المخبأ المتفق عليه لتجدها فيرمينا داثا وهي في طريقها إلى المدرسة. أما هذه بالمقابل، فكانت خاضعة لحراسة الأب ولرصد الراهبات المشين، ولم تكن تستطيع إلا بالكاد ملء نصف صفحة من الدفتر المدرسي وهي حابسة نفسها في الحمام أو متظاهرة بتسجيل ملاحظات اثناء الدرس. وليس بسبب السرعة وخوف المفاجآت فقط، انما بسبب طبعها أيضاً، كانت رسائلها تتجنب اية اشعارات عاطفية وتقتصر على سرد وقائع حياتها اليومية باسلوب يوميات الرحلات البحرية المتسرع. لقد كانت في الواقع رسائل لهو، تسعى الى الاحتفاظ بالجمر متقداً ولكن دون ان تضع يدها في النار، فيما فلورينتينو اريثا يحترق ويتحول الى رماد في كل سطر يخطه. وفي سعيه لينقل اليها عدوى جنونه، كان يرسل لها ابيات شعر محفورة برأس دبوس على وريقات زهرة كاميليا. وكان هو، وليس هي، من تجرأ على وضع خصلة من شعره في احدى الرسائل، لكنه لم يتلق أبداً الاجابة المرجوة، الا وهي تيلة من ضفيرة فيرمينا داثا. انما تمكن من جعلها تخطو خطوة اخرى على الأقل، اذ أصبح يتلقى منذ ذلك الحين أوراق زهور مجففة في قواميس، واجنحة فراشات، وريش عصافير فاتنة، ثم انها اهدته في عيد ميلاده سنتمتراً مربعاً من مسوح القديس بيدرو كلافير، تلك التي كانت تباع بالخفاء في تلك الايام بسعر لا يمكن لتلميذة في سنها ان تدفعه. وفي احدى الليالي، ودون سابق انذار، استيقظت فيرمينا داثا مرتعدة لسماعها سيرناد كمان منفرد تعزف فالساً محدداً. لقد اهتزت فرحاً وهي تشعر ان كل نغمة انما هي بمثابة شكر على نباتاتها المجففة، وعلى الوقت الذي تختلسه من درس الحساب لتكتب رسائلها، وعلى خوفها من الامتحانات وهي تفكر به اكثر من تفكيرها بالعلوم الطبيعية، لكنها لم تتجرأ ان تصدق بان فلورينتينو اريثا قادر على اقتراف مثل هذا التهور.

العمة اسكولاستيكا إلى مكتب التلغراف لتسأل عن تكلفة ارسال برقية إلى قرية بيدرا دي مولير، التي لا يرد ذكرها في قائمة الخدمات البرقية، وسعت لأن يتولى الرد على استفسارها فلورينتينو داثا، متظاهرة بانها لم تره أبداً من قبل، لكنها عند الخروج تعمدت ان تنسى على الطاولة كتاب صلوات مجلد بجلد ضب، فيه مغلف من ورق مبطن ومزين بصورة مذهبة. أمضى فلورينتينو اريثا، الذي اختل من السعادة، بقية ذلك المساء وهو يأكل الورود ويقرأ الرسالة، ويراجعها حرفاً حرفاً مرة بعد اخرى، وكلما قرأ اكثر كان يأكل المزيد من الورد، وعند منتصف الليل كان قد قرأها مرات ومرات وأكل ورداً كثيراً جعل امه تشده من اذنه كخروف وتجبره على شرب زيت الخروع.

كانت تلك هي سنة الحب العنيف. ولم يكن في حياة اي منهما شيء سوى التفكير بالآخر، وانتظار الرسائل بشوق كشوق الرد عليها. ولم يحدث طوال ذلك الربيع من الهذيان، ولا في السنة التالية ان اتيحت لهما فرصة للتواصل بصوت عال. بل واكثر من ذلك: منذ ان رأيا بعضهما لأول مرة وإلى ان كرر عليها قراره بعد نصف قرن، لم يحصلا أبداً على فرصة للقاء منفردين ولا لتبادل الحديث عن حبهما. ولكن لم يمر يوم واحد خلال الشهور الثلاثة الاولى دون ان يتبادلا الرسائل، بل كان يكتبان لبعضهما الرسائل مرتين يومياً في احدى الفترات، الى ان فزعت العمة اسكولاستيكا لشراهة النار التي ساهمت هي نفسها في

بعد ان حملت الرسالة الأولى إلى مكتب التلغراف وكأنها تريد ان تثأر من حظها بالذات، راحت تسهل عملية تبادل الرسائل شبه اليومية، في لقاءات تبدو عرضية في الازقة، ولكن لم تكن تملك الشجاعة لرعاية تبادل حديث بينهما، مهما كان ذلك الحديث تافهاً وقصيراً. ثم ادركت بعد مرور ثلاثة شهور ان ابنة اخيها ليست مؤهلة لغرام فتي، كما بدا لها أول الامر، واصبحت حياتها هي مهددة بفعل نار الحب تلك. لم تكن لدى اسكولاستيكا بالفعل وسيلة اخرى للمعيشة سوى احسان اخيها، وكانت تعلم ان طبعه المتسلط لن يغفر لها أبداً تلاعباً كهذا بالثقة التي منحها اياها. ولكن قلبها لم يطاوعها في نهاية الأمر على تعريض ابنة اخيها لمحنة قاسية كالتي رعتها هي منذ شبابها، فسمحت لها باستخدام وسيلة تمنحها وهم الاحساس بالبراءة. وكانت وسيلة بسيطة: تضع فيرمينا دثا رسالتها في مخبأ في طريقها اليومي بين البيت والمدرسة، وفي هذه الرسالة تخبر فلورينتينو اريثا عن المكان الذي ستجد الجواب فيه. ثم يفعل فلورينتينو اريثا الشيء ذاته، وهكذا أخذ تأنيب الضمير الذي كانت تحسه العمة اسكولاستيكا ينتقل إلى زوايا الكنائس، وفجوات الأشجار، وشقوق انقاض الحصون الاستعمارية، كانا يجدان الرسائل مبللة بالمطر أحياناً، او ملوثة بالوحل، او ممزقة لضيق

الفجورة، كما فُقدت بعض الرسائل لاسباب مختلفة، لكنهما كانا يجدان دوماً وسيلة لاعادة الاتصال.

كان فلورينتينو اريثا يكتب كل ليلة دون ان تأخذه رحمة بنفسه، متسمماً حرفاً فحرفاً بدخان مصباح زيت الكوروزو في القسم الخلفي من دكان الخردوات، وكانت رسائله تصبح أكثر اسهاباً وجنوناً كلما أجهد نفسه في محاكاة شعرائه المفضلين الذين تُنشر اعمالهم في سلسلة المكتبة الشعبية، التي وصل عدد اجزائها في ذلك الحين إلى اكثر من ثمانين مؤلفاً. أما أمه التي حثته على التمتع في عذابه، فأخذت تصاب بالذعر لاعتلال صحته، وصارت تصيح به من غرفة النوم عندما تسمع صياح أول الديكة: «ستستنزف دماغك. ليس من امرأة تستحق كل هذا.» فهي لا تذكر انها عرفت أحداً بمثل هذه الحالة من الضياع. أما هو فلم يكن يعيرها اهتماماً. كان يصل إلى المكتب أحياناً دون ان يكون قد نام، شعره مشعث من الحب، بعد ان يكون قد اودع الرسالة في المخبأ المتفق عليه لتجدها فيرمينا داثا وهي في طريقها إلى المدرسة. أما هذه بالمقابل، فكانت خاضعة لحراسة الأب ولرصد الراهبات المشين، ولم تكن تستطيع إلا بالكاد ملء نصف صفحة من الدفتر المدرسي وهي حابسة نفسها في الحمام أو متظاهرة بتسجيل ملاحظات اثناء الدرس. وليس بسبب السرعة وخوف المفاجآت فقط، انما بسبب طبعها أيضاً، كانت رسائلها تتجنب اية اشارات عاطفية وتقتصر على سرد وقائع حياتها اليومية باسلوب يوميات الرحلات البحرية المتسرع. لقد كانت في الواقع رسائل لهو، تسعى الى الاحتفاظ بالجمر متقداً ولكن دون ان تضع يدها في النار، فيما فلورينتينو اريثا يحترق ويتحول الى رماد في كل سطر يخطه. وفي سعيه لينقل اليها عدوى جنونه، كان يرسل لها ابيات شعر محفورة برأس دبوس على وريقات زهرة كاميليا. وكان هو، وليس هي، من تجرأ على وضع خصلة من شعره في احدى الرسائل، لكنه لم يتلق أبداً الاجابة المرجوة، الا وهي تيلة من ضفيرة فيرمينا داثا. انما تمكن من جعلها تخطو خطوة اخرى على الأقل، اذ أصبح يتلقى منذ ذلك الحين أوراق زهور مجففة في قواميس، واجنحة فراشات، وريش عصافير فاتنة، ثم انها اهدته في عيد ميلاده سنتمتراً مربعاً من مسوح القديس بيدرو كلافير، تلك التي كانت تباع بالخفاء في تلك الايام بسعر لا يمكن لتلميذة في سنها ان تدفعه. وفي احدى الليالي، ودون سابق انذار، استيقظت فيرمينا داثا مرتعدة لسماعها سيرناد كمان منفرد تعزف فالساً محدداً. لقد اهتزت فرحاً وهي تشعر ان كل نغمة انما هي بمثابة شكر على نباتاتها المجففة، وعلى الوقت الذي تختلسه من درس الحساب لتكتب رسائلها، وعلى خوفها من الامتحانات وهي تفكر به اكثر من تفكيرها بالعلوم الطبيعية، لكنها لم تتجرأ ان تصدق بان فلورينتينو اريثا قادر على اقتراف مثل هذا التهور.

في صباح اليوم التالي، واثناء تناول الفطور، لم يستطع لوريثو دانا مقاومة الفضول. أولاً، لانه لم يكن يعرف ما تعنيه معزوفة واحدة في لغة السيرناد، وثانياً، انه رغم اهتمامه في الاصغاء لم يستطع ان يحدد في أي بيت كان العزف. واكدت العمة اسكولاستيكا، بهدوء أعصاب أعاد النفس إلى ابنة الأخ، انها رأت من خلال ستارة نافذة غرفة نومها ان عازف الكمان المنفرد كان في الجانب الاخر من الحديقة، وقالت ان معزوفة وحيدة على اية حال هي ابلاغ بالقطيعة. وفي رسالته لهذا اليوم، اكد فلورينتينو اريثا انه هو صاحب السيرناد، وان هذا الفالس من تأليفه وانه أطلق عليه نفس الاسم الذي يطلقه على فيرمينا داثا في قلبه: الربة المتوجة. لم يعد لعزف هذا اللحن في الحديقة، لكنه كان يختار الليالي المقمرة ليعزفه في أماكن منتقاة بحيث تسمعه دون ان يتولاها الذعر في مخدعها. وقد كان أحد أماكنه المفضلة هو مقبرة الفقراء، المكشوفة للشمس والمطر فوق تلة جرداء كانت طيور الرخمة تتخذها مكاناً للنوم، حيث كانت الموسيقى تصدح بأصداء ما ورائية. ثم تعلم فيما بعد التعرف على اتجاه الريح، وبهذا صار يتأكد ان صوته يصل إلى حيث يريده ان يصل.

في شهر آب من هذه السنة، نشبت حرب أهلية جديدة من تلك الحروب الكثيرة التي خربت البلاد منذ اكثر من نصف قرن، وكانت تهدد بالاتساع لتشمل البلاد بأسرها، ففرضت الحكومة قوانين الطوارىء وحظر التجول منذ الساعة السادسة مساء في ولايات ساحل الكاريبي. ورغم حدوث بعض الاضطرابات واقتراف القوات العسكرية لجميع انواع التنكيل التعسفي، استمر فلورينتينو اريثا في غيبوبته غير عابيء بحال الدنيا، وفاجأته دورية عسكرية في فجر أحد الايام وهو يقلق عفة الموتى باستفزازاته الغرامية. ولقد نجا بمعجزة من تحقيق أولي بتهمة انه جاسوس يبعث الاخبار باشارات ضوئية إلى السفن الليبرالية التي تجوب المياه المجاورة متحينة الفرصة للانقضاض.

قال فلورينتينو اريثا:

- أي جاسوس وأية لعنة. أنا لست سوى عاشق بائس.

نام ثلاث ليال مكبلاً من كاحليه في زنازين الحامية المحلية. وحين أطلقوا سراحه أحس بانه قد غُبن لقصر مدة الحبس، وبقي حتى ايام شيخوخته، عندما أصبحت تختلط في ذاكرته ذكرى حروب اخرى كثيرة، يفكر بانه الرجل الوحيد في المدينة، وربما في البلاد، الذي جر بقدميه اصفاداً زنتها خمسة ارطال من اجل قضية حب.

كادت تنقضي سنتان على بريدهما المحموم عندما عرض فلورينتينو اريثا في احدى رسائله الزواج رسمياً على فيرمينا داثا. كان قد بعث اليها عدة مرات في الشهور الستة السابقة زهرة كاميليا بيضاء، لكنها كانت تعيدها اليه في الرسالة التالية، حتى لا يرتاب من استمرار كتابتها

اليه، انما دون مخاطر الالتزام. والحقيقة انها كانت ترى دائماً في ذهاب زهرة الكاميليا ومجيئها مداعبة غرامية، ولم يخطر لها يوماً ان تفكر فيها كنقطة انعطاف في مصيرها. اما عندما وصلها عرض الزواج الرسمي، فقد أحست انها تتمزق بأول مخالب الموت. وروت الأمر للعمة اسكولاستيكا وهي هلعة، فتناولت العمة الاستشارة بالشجاعة والفطنة التي لم تمتلكها وهي في العشرين من عمرها عندما كان عليها ان تقرر مصيرها.

قالت لها:

- أجيبيه بنعم، حتى ولو كنت تموتين فزعاً، وحتى لو ندمت فيما بعد، لانك على أية حال ستندمين طوال حياتك ان أنت أجبته بلا.

ولكن فيرمينا داثا كانت مشوشة رغم هذه النصيحة، فطلبت مهلة لتفكر في الأمر. طلبت شهراً في البدء، ثم شهراً آخر وآخر، وعندما أتمت الشهر الرابع دون ان تعطي ردها عادت تتلقى زهرة الكاميليا البيضاء ولكن ليس الزهرة وحدها كما في مرات سابقة، وانما هي مرفقة باخطار حازم انها ستكون المرة الاخيرة: اما الآن واما القطيعة النهائية. حينئذ كان فلورينتينو اريثا هو الذي رأى وجه الموت في مساء ذلك اليوم بالذات حين تلقى مغلفاً به قصاصة ورقة طويلة منتزعة من هامش دفتر مدرسي، كتب عليها الرد في سطر واحد بقلم رصاص: حسناً، أوافق على الزواج منك ان أنت وعدتني بألا تجبرني على أكل الباذنجان.

لم يكن فلورينتينو اريثا مهيئاً لمثل هذا الرد، لكن امه كانت كذلك. فمذ كلمها لاول مرة، قبل ستة أشهر، عن نيته بالزواج، بدأت ترانسيتو اريثا بمشاوراتها لاستئجار كامل البيت الذي كانت تتقاسمه حتى ذلك الحين مع عائلتين اخريين. لقد كان البيت بناء مدنياً من القرن السابع عشر، مؤلفاً من طابقين، حيث كانت توجد ادارة التبغ ابان السيطرة الاسبانية، وقد افلس مالكوه واضطروا لتأجيره جزءاً جزءاً لافتقارهم إلى الموارد اللازمة لاستمراره في العمل. قسم من البيت كان يطل على الشارع، حيث كانت صالة البيع سابقاً، وقسم آخر في نهاية باحة مرصوفة حيث كان المعمل، وهنالك اسطبل واسع جداً يستخدمه المستأجرون الحاليون جميعهم لغسل الملابس ونشرها. كانت ترانسيتو اريثا تشغل القسم الأول، وهو الاكثر ملاءمة والأفضل حالاً، رغم كونه الاضيق أيضاً. في صالة البيع القديمة أقامت دكان خردواتها، ببوابة تطل على الشارع، والى جانبها المستودع القديم الذي لا وجود فيه لاية فتحة تهوية سوى كوة السقف، وفيه كانت تنام ترانسيتو اريثا. وما وراء الدكان هو نصف الصالة الآخر، المقسوم بباب خشبي ثلاثي المصاريع، كانت توجد فيه طاولة حولها أربع كراس تستخدم للطعام والكتابة في الوقت ذاته، وهناك كان يعلق فلورينتينو اريثا

ارجوحة نومه حين يباغته الفجر وهو يكتب. كان المكان مناسباً لهما، لكنه غير كاف لشخص آخر معهما، وخصوصاً اذا كان هذا الشخص احدى آنسات مدرسة ظهور العذراء المقدسة، التي رمم ابوها انقاض بيت مهدم حتى أعاده وكأنه جديد، بينما العائلات ذات السبعة ألقاب تنام خائفة من انهيار اسقف المنازل فوقها اثناء النوم، وقد تمكنت ترانسيتو اريثا من الحصول على وعد من صاحب البيت بالسماح لها بشغل رواق الفناء لمدة خمس سنوات، على ان ترمم البيت وتجعله في حالة حسنة.

كانت تملك الموارد اللازمة. فالى جانب دخلها الحقيقي من دكان الخردوات ومن نسالات النسيج موقفة النزف، الذي كان يكفيها لعيش حياتها المتواضعة، كانت قد ضاعفت مدخراتها بتقديمها القروض لزبائنها من الفقراء الجدد الخجولين الذين يوافقون على فوائدها الباهظة لكتمانها الأسرار. كانت سيدات لهن مظهر الملكات ينزلن من العربات الفاخرة أمام باب دكان الخردوات، دون وصيفات أو خدم مزعجين، فيتظاهرن بانهن يردن شراء مطرزات هولندية وحواشي من الحرير المحبوك، ثم يرهن بين دمعتين آخر مصاغ فردوسهن المفقود. وتخرجهن ترانسيتو اريثا من حرجهن بتقديرها الشديد لأصلهن النبيل، لدرجة ان معظمهن كن ينصرفن وهن يحمدن الشرف اكثر من حمدهن المعروف. وخلال أقل من عشر سنوات كانت من ممتلكاتها الحلي المستردة مرات عديدة والمعادة للرهن وسط الدموع مجدداً، وكذلك الأرباح المتحولة إلى ذهب والمدفونة في جرة تحت السرير عندما اتخذ ابنها قرار الزواج. حينئذ راجعت حساباتها. واكتشفت انها لا تستطيع القيام بعملية صيانة البيت من الانهيار لمدة خمس سنوات فحسب، بل ربما تستطيع ببعض الحيلة وشيء من الحظ ان تشتريه لاحفادها الاثني عشر الذين كانت ترغب ان ينجبهم ابنها. وكان فلورينتينو اريثا قد عُيِّن معاوناً أول لمسؤول مكتب التلغراف بصفة مؤقتة، وكان لوتاريو تورغوت يريد تسليمه ادارة المكتب حين يذهب هو لتولي ادارة مدرسة التلغراف والمغنطة المنتظر افتتاحها في العام التالي.

وهكذا كان الجانب العملي من الزواج محلولاً. ومع ذلك، رأت ترانسيتو اريثا ضرورة الاهتمام بشرطين نهائيين. الأول هو الاستعلام عن حقيقة لورينثو داثا، الذي لا تترك لهجته أية شكوك حول أصله، أما هويته ووسائله في الحياة فليس هناك من يعرف عنها خبراً يقيناً. والثاني هو ان الخطوبة يجب ان تطول حتى يتعارف الخطيبان بعمق عبر العلاقة الشخصية وان يُحفظ أمر الخطوبة طي الكتمان الصارم إلى ان يتأكدا كلاهما من عواطفهما. واقترحت ان ينتظرا حتى تنتهي الحرب. وقد وافق فلورينتينو اريثا على الاحتفاظ بالسرية المطلقة، سواء للاسباب التي عرضتها أمه أولطبعه المحب للكتمان. وكان موافقاً كذلك على اطالة مدة الخطوبة لكن النهاية بدت له لا واقعية، [illegible]اد لم يعرف خلال نصف قرن من الاستقلال يوماً واحداً من السلام الأهلي. فقال:

ـ سنشيخ بهذا ونحن ننتظر.

ولم يكن عرابه، الطبيب التجانسي، والذي كان يشارك مصادفة بالحديث، يعتقد بان الحروب عائق. وكان يرى انها ليست سوى مشاكل فقراء يسوقهم ملاكو الأرض كالجواميس، ضد جنود حفاة تسوقهم الحكومة. وقال:

ـ الحرب في الجبل. ومذ أدركت أنا بأنني أنا، لم يقتلونا هنا في المدينة بالرصاص وانما بالقرارات.

لقد حُلّت على اي حال جميع تفاصيل الخطوبة في رسائل الاسبوع التالي. ووافقت فيرمينا داثا، بناء على نصيحة العمة اسكولاستيكا، على استمرار الخطوبة لمدة سنتين وعلى الكتمان المطلق، واقترحت ان يطلب فلورينتينو اريثا يدها عندما تنتهي من المدرسة الثانوية في عطلة أعياد الميلاد. وان يتفقا في الوقت المناسب على طريقة اعلان الخطوبة حسب درجة القبول التي ستكون قد حصلت عليها من ابيها. وحتى ذلك الحين، تابعا تبادل الرسائل بنفس الحماس ونفس الكثرة، ولكن دون المخاوف السابقة. وأخذت رسائلهما تميل الى لهجة عائلية وتبدو كأنها رسائل زوجين. ولم يكن هناك ما يعكر احلامهما.

ولقد طرأ تبدل على حياة فلورينتينو اريثا. اذ منحه الحب المتبادل اماناً وقوة لم يعرفهما أبداً، وأصبح دؤوباً في العمل مما سمح للوتاريو توغوت تعيينه نائباً له في السلطات دون بذل اي مجهود. وكان مشروع مدرسة التلغراف والمغنطة قد فشل في ذلك الحين، فكرس الألماني وقت فراغه للأمر الوحيد الذي يحبه فعلاً، إلا وهو الذهاب إلى الميناء لعزف الاوكورديون وتناول البيرة مع البحارة، ثم الانتهاء من كل ذلك في فندق العابرين. وقد انقضى زمن طويل قبل ان يعرف فلورينتينو اريثا ان تأثير لوتاريو توغوت في مكان اللذة ذاك انما هو عائد إلى امتلاكه المحل، وكونه رب عمل عصفورات الميناء. لقد اشتراه شيئاً فشيئاً، بمدخراته خلال سنوات طويلة، لكن من كان يدير الفندق لا منه هو رجل قصير، نحيل وأعور، رأسه كالفرشاة، وقلبه طيب وأليف لدرجة ان أحداً لم يكن يفهم كيف بامكانه ان يكون وكيلا مناسباً. لكنه كان كذلك. أو على الاقل هذا ما بدا لفلورينتينو اريثا عندما قاله له الوكيل، دون ان يكون هو قد طلب منه، بانه هيأ له غرفة دائمة في الفندق لا ليحل فيها مشاكل ما تحت البطن فقط، حين يقرر ذلك، بل ليجد مكاناً اكثر هدوءاً لمطالعته ولرسائل الحب التي يكتبها. وفيما كانت الشهور المتبقية لاعلان الخطوبة تمضي، أخذ يقضي في الفندق وقتاً أطول مما يقضيه في المكتب والبيت، وجاءت فترات لم تعد ترانسيتو اريثا تراه إلا عندما يأتي لاستبدال ملابسه.

صارت المطالعة رذيلة لا يرتوي منها. فمنذ علمته أمه القراءة، كانت تشتري له كتب المؤلفين الشماليين المزينة بالرسوم، والتي كانت تباع على انها حكايات للأطفال، لكنها في الواقع كنت أقسى وأفسد ما يمكن قراءته في جميع الاعمار. كان فلورينتينو اريثا يسردها عن ظهر قلب وهو في الخامسة، سواء في الدروس أو في سهرات المدرسة، لكن تآلفه معها لم يهدىء من رعبه. بل على العكس، كان يفاقمه. وهكذا فقد كان لتحوله إلى الشعر مفعول المسكّن. فما ان بلغ سن الرشد حتى كان قد استهلك حسب ترتيب صدورها، جميع كتيبات المكتبة الشعبية التي كانت تشتريها له ترانستو اريثا من المكتبيين الذين يعرضون بضاعتهم عند بوابة الكتبة العموميين، حيث توجد جميع انواع الكتب، ابتداء من هوميروس وحتى أقل الشعراء المحليين قيمة. ولم يكن يميز ما يقرأه: كان يقرأ الكتيب الذي يأتيه، كما لو كان شأناً من شؤون القدر. ولم تكفه كل سنوات القراءة ليعرف الغث من السمين في العالم الذي قرأه. والشيء الوحيد الذي كان واضحاً لديه هو انه عند المفاضلة بين النثر والشعر يفضل الشعر، ومن بين الاشعار يفضل أشعار الحب، التي كان يحفظها غيباً دون قصد منذ القراءة الثانية، وبسهولة اكبر حين تكون مقفاة وموزونة جيداً، وعندما تكون مؤثرة كثيراً.

كان هذا هو المنهل الاساسي لرسائله الأولى إلى فيرمينا داثا، حيث كان يورد مقاطع كاملة دون طهي من أشعار الرومنسيين الاسبان، وبقيت رسائله كذلك إلى ان اضطرته الحياة الواقعية إلى الاهتمام بالشؤون الدنيوية اكثر من الاهتمام بشجون القلب. وكان في ذلك الحين قد خطا خطوة اخرى نحو قصص الدموع المسلسلة وانواع اخرى اكثر دنيوية من نثر عصره. وكان قد تعلم البكاء مع أمه وهو يقرأ الشعراء المحليين الذين يباعون في الساحات وتحت القناطر في كتيبات بسنتافين لكل منها. لكنه كان قادراً في الوقت نفسه على القاء أفضل أشعار العصر الذهبي القشتالي عن ظهر قلب. وعموماً كان يقرأ كل ما يقع بين يديه، وحسب ترتيب وقوعه بين يديه، حتى انه بعد زمن طويل من سنوات حبه الأول القاسية تلك، وعندما لم يعد شاباً، قرأ من أول صفحة وحتى آخر صفحة مجلدات كنز الشباب العشرين، ومجموعة الكلاسيكيين الكاملة حسب طبعة جارنير هنس المترجمة، والاعمال الاكثر سهولة التي كان ينشرها دون فيثنتي بلاسكو ايبانيث في سلسلة الواعدون.

ولم تكن فترة فتوته في فندق العابرين على أية حال تقتصر على المطالعة وكتابة الرسائل المحمومة، وانما ادخلته أيضاً في أسرار ممارسة الحب دون حب. كانت الحياة تدب في البيت بعد انتصاف النهار، عندما تستيقظ صديقاته العصفورات عاريات كما ولدتهن امهاتهن، وهكذا كان فلورينتينو اريثا يجد نفسه لدى عودته من العمل في قصر مسكون بحوريات

عاريات، يعلقن صارخات على اسرار المدينة، التي يطلعن عليها بوشايات اصحابها بالذات. وكانت كثيرات منهن يعرضن في عريهن اثاراً من الماضي : ندوب طعنات خناجر في البطن، أو اثار أعيرة نارية تبدو كالنجوم، أو اخاديد ضربات بسكاكين الحب. أو خياطات عمليات قيصرية يجريها الجزارون. وتحضر بعضهن خلال النهار ابنائهن الصغار، ابناء مرارة الشباب وتهوره التعساء، وينزعن عنهم ملابسهم فور دخولهم حتى لا يشعر الصغار بانهم مختلفون في جنة العراة. وقد كانت كل منهن تطهو طعامها وحدها، ولم يكن هناك من يأكل خيراً من فلورينتينو اريثا عندما يدعونه، لانه يختار أفضل ما لدى كل منهن. كان ذلك احتفالاً يومياً يستمر حتى المساء، حين تصطف العاريات لدخول الحمام وهن يغنين، بينما يستعرن من بعضهن الصابون، أو فرشاة الاسنان، أو المقصات، وكانت بعضهن تقص شعر الاخريات، ثم يرتدين ملابسهن سهلة الخلع، ويطلين وجوههن كمهرجات مبكيات، ويخرجن لاصطياد أول طرائدهن الليلية. وحينئذ تصبح حياة البيت غامضة ولا انسانية وتصبح المشاركة فيها مستحيلة دون دفع الثمن.

لم يكن لفلورينتينو اريثا مكان أفضل منه يقضي فيه وقته مذ تعرف على فيرمينا داثا، فهو المكان الوحيد الذي لا يشعر فيه بالوحدة. بل واكثر من ذلك: انه المكان الوحيد الذي صار يشعر وهو فيه بانه معها. وربما لهذه الاسباب نفسها كانت تعيش هناك امرأة متقدمة في السن، أنيقة، ذات رأس مفضض بديع، لا تشارك في حياة العاريات الطبيعية، ويكنن لها جميعهن احتراماً قدسياً. لقد حملها إلى هناك خطيب ما وهي شابة، وبعد ان تمتع بها لبعض الوقت هجرها لمصيرها. وقد توصلت رغم وصمتها إلى زواج سعيد، وعندما أصبحت كبيرة في السن، ووحيدة، تنازع ابناها وبناتها الثلاث متعة حملها للعيش معهم، أما هي فلم يخطر لها مكان اكثر جدارة بالحياة من فندق الماجنات الحنونات ذاك. وكانت حجرتها الدائمة هناك هي بيتها الوحيد، وهذا ما جعلها تتوافق فوراً مع فلورينتينو اريثا، الذي كانت تقول عنه انه سيصير عالماً مشهوراً في العالم بأسره، لانه قادر على اغناء روحه بالمطالعة في جنة الشبق. وقد أبدى لها فلورينتينو اريثا من جانبه عطفاً شديداً، فكان يساعدها في شراء حاجاتها من السوق، واعتاد ان يمضي بعض الاماسي متحدثاً اليها، وكان يفكر بانها امرأة عالمة في الحب، اذ قدمت له اضاءات كثيرة حول حبه، دون ان يكشف لها عن سره.

واذا كان لم يسقط في الاغراءات الكثيرة التي في متناول يده قبل ان يعرف حب فيرمينا داثا، فانه لن يفعل ذلك بعد ان أصبحت خطيبته الرسمية. وهكذا كان فلورينتينو اريثا يعيش مع الفتيات، يقاسمهن الافراح والاتراح، دون أن يخطر بباله أو ببالهن المضي إلى ما هو أبعد من ذلك. وقد جاء حادث طاريء ليؤكد صرامة قراره. ففي الساعة السادسة من

مساء أحد الايام، وفيها الفتيات يرتدين ملابسهن استعداداً لاستقبال زبائن الليل، دخلت إلى حجرته العاملة المكلفة بتنظيف الأرضية: امرأة شابة لكنها مترهلة وشاحبة، ترتدي ملابسها كتائبة في مملكة العاريات. وكان يراها يومياً دون أن يشعر بانها تراه. كانت تتنقل بين الحجرات حاملة المكانس، وسطل القمامة ومسحة خاصة تلتقط بها عن الارض مانعات الحمل المستخدمة. دخلت إلى الغرفة حيث كان فلورينتينو اريثا يقرأ كعادته، وكنست الأرض بحذر شديد كعادتها، كي لا تزعجه وفجأة مرت بمحاذاة السرير، وأحس باليد الدافئة والطرية فوق صليب بطنه، وأحس بها تبحث عنه، أحس بها تجده، وأحس بها تحل الأزرار فيما تنفسها يملأ الغرفة. وتظاهر بانه يقرأ إلى ان لم يعد قادراً على الاحتمال، فاضطر للاعراض عنها بجسده.

فزعت المرأة، فالتحذير الأول الذي اعطوها اياه لمنحها وظيفة عاملة هو ألا تضاجع أحداً من الزبائن. ولم يكن عليهن ان يقلن لها ذلك، لانها كانت ممن يفكرن بان الدعارة ليست في المضاجعة مقابل المال، وانما في مضاجعة الغرباء. كان لها ابنان، كل منهما من زوج مختلف، وليس ذلك في مغامرات عرضية، وانما لانها لم تتمكن من حب رجل يرجع اليها بعد المرة الثالثة. لقد كانت حتى ذلك الحين امرأة ليست على عجلة من أمرها، وكانت مهيأة بطبعها للانتظار دون يأس، ولكن الحياة في ذلك البيت كانت اقوى من عفتها. كانت تدخل إلى العمل في السادسة مساء، وتقضي الليل كله متنقلة من حجرة الى اخرى، كانسة الأرض بأربع ضربات من مكنستها، جامعة موانع الحمل المستخدمة، ومستبدلة شراشف الاسرة. ولم يكن سهلاً تصور كمية الاشياء التي يخلفها الرجال بعد الحب. انهم يتركون قيئاً ودموعاً، وهذا كان يبدو لها مفهوماً. لكنهم كانوا يخلفون كذلك الكثير من ألغاز العلاقات الجنسية: بقع دم، لطخات براز، عيون زجاجية، ساعات ذهبية، اسنان اصطناعية، علب تحتوي على خصل شعر ذهبية، رسائل حب، رسائل تجارية، رسائل تعزية.. رسائل من كل صنف. وكان بعضهم يعود بحثاً عن اشيائه المفقودة، لكن معظم الاشياء كانت تبقى هناك، وكان لوتاريو توغوت يحفظها تحت قفل، مفكراً بان ذلك القصر الساقط في المحنة، مع آلاف الاشياء الشخصية المنسية، سيتحول عاجلاً أم آجلاً إلى متحف للحب.

كان العمل قاسياً وأجره ضئيلاً، لكنها كانت تقوم به على أحسن وجه. أما مالم تكن قادرة على احتماله فهو التنهدات، والتأوهات، وصرير نوابض الأسرة التي كانت تترسب في دمها بحرقة وألم شديدين، وما ان يأتي الفجر حتى تكون عاجزة عن احتمال تلهفها للاضجاع مع أول شحاذ تلتقي به في الشارع، أو مع أي سكير مبدد يقدم لها هذه الخدمة دون مطالب أو أسئلة اخرى. كان ظهور رجل بلا امرأة، كفلورينتينو اريثا، فتي ونظيف، بمثابة هدية من

السماء بالنسبة لها. ذلك انها لاحظت منذ اللحظة الأولى انه مثلها: معوز للحب. أما هو، فلم يكن يحس بما تعانيه. لقد احتفظ بعذريته في سبيل فيرمينا داثا، وليست هناك قوة أو منطق في هذا العالم يثنيه عن عزمه.

وعلى هذا المنوال كانت حياته تسير قبل أربعة شهور من الموعد المحدد لاعلان الخطوبة، عندما ظهر لورينثو داثا في الساعة السادسة صباحاً في مكتب التلغراف، وسأله عنه. وبما انه لم يكن قد حضر بعد، فقد انتظره جالساً على المقعد حتى الساعة الثامنة وعشر دقائق، ناقلاً من أصبع إلى آخر الخاتم الذهبي الثقيل المرصع بياقوتة نقية، وعندما رآه يدخل عرفه فوراً على انه موظف التلغراف، فأمسكه من ذراعه وقال له:

ـ تعال معي أيها الشاب. لدينا ما نتحدث فيه معاً لخمس دقائق حديث رجل لرجل.

وانقاد فلورينتينو اريثا، الذي صار لونه أخضر مثل ميت.. لم يكن مهيئاً لهذا اللقاء، لان فيرمينا داثا لم تجد الفرصة ولا الوسيلة لانذاره. والقضية هي انه في يوم السبت الفائت، دخلت الأخت فرانكا دي لا لوث، رئيسة راهبات مدرسة ظهور العذراء المقدسة، إلى درس المعرفة الكونية بصمت أفعى، وفيما هي تتجسس على التلميذات من فوق اكتافهن، اكتشفت ان فيرمينا داثا تتظاهر بانها تسجل ملاحظات على الدفتر بينما هي في الواقع تكتب رسالة حب. كانت هذه الخطيئة، حسب قوانين المدرسة، سبباً كافياً للطرد. ولدى استدعائه على عجل إلى مكتب الادارة، اكتشف لورينثو داثا الثقب الذي كان يتسرب منه نظامه الحديدي. وقد اعترفت فيرمينا داثا، بقوة طبعها، بخطيئة الرسالة، لكنها رفضت الكشف عن هوية الحبيب السري. وعادت ترفض أمام محكمة الانضباط، التي أقرت لهذا السبب حكم الطرد. ورغم ذلك، فقد قام الأب بتفتيش غرفة نومها التي كانت حتى ذلك الحين مكاناً مقدساً لا يجوز خرق حرمته، ووجد في الصندوق ذي القاع المزدوج رسائل ثلاث سنوات، مخبأة بمحبة تضاهي المحبة المبذولة في كتابتها. لم يكن توقيع المرسل يحتمل الخطأ، لكن لورينثو داثا لم يستطع ان يصدق حينئذ، ولا فيما بعد، ان ابنته لا تعرف عن خطيبها الخفي سوى مهنته في التلغراف وهوايته في عزف الكمان.

ولقناعته ان علاقة على هذا القدر من الصعوبة لا يمكن فهمها إلا بتستر شقيقته، فانه لم يسمح لهذه حتى بنعمة الاعتذار، وانما اجبرها على الابحار دون استئناف في مركب إلى سان خوان دي لاثييناغا. ولم تسترح فيرمينا داثا إلى الابد من عذاب ذكراها الأخيرة، في مساء اليوم الذي ودعتها فيه عند البوابة وهي تتقد بالحمى في مسوحها البني، ورأتها تختفي بعظامها البارزة وشحوبها تحت مطر الحديقة حاملة متاعها الوحيد المتبقي لها في الحياة: حقيبة العزباء، وبعض النقود، التي لا تكاد تكفيها للحياة شهراً، ملفوفة بمنديل في طرف كمها.

وما ان تحررت من سلطة والدها فيما بعد حتى بعثت من يبحث عنها في مقاطعات الكاريبي ، سائلة عنها كل من قد تعرف اليهـا ، ولم تجد أي خبر عن اثـارهـا إلا بعد مرور حوالي ثلاثين سنـة ، عنـدمـا تلقت رسالة تناقلتها أيد كثيرة خلال زمن طويل ، وفيها يخبرونها بانها ماتت في حوالي المئة من العمر في محجر اغوا دي ديوس الصحي . لم يتنبأ لورينثو دائا بالشراسة التي سترد بها ابنته على العقاب الظالم الذي راحت ضحيته العمة اسكولاستيكا ، تلك العمة التي كانت ترى فيها امها التي لا تكاد تتذكرها . لقد حبست نفسها مقفلة الباب بالرتاج في غرفة النوم ، دون طعام أو شراب ، وعندما تمكن اخيراً من جعلها تفتح الباب ، بالتهديد أولاً ثم بالتوسلات المنافقة ، وجدَ نفسه أمام لبوة جريح لن تعود ابنة خمس عشرة سنة إلى الأبد .

حاول اغراءها بكل أنواع التملق . حاول افهامها أن الحب في سنها ما هو إلا سراب ، وحاول اقناعها بالحسنى اذ تعيد الرسائل وترجع إلى المدرسة لتطلب الصفح جاثية ، ووعدها بكلمة شرف انه سيكون أول من سيساعدها لتكون سعيدة مع خطيب محترم . لكنه كان كميت يحدث ميتاً . أحس بالهزيمة ، وانتهى إلى فقدان أعصابه اثناء غداء يوم الاثنين ، وفيما هو يشرق بالسباب والشتائم على حافة الهيجان ، تناولت سكين اللحم ووضعتها على عنقها ، بلا دراماتيكية وبنبض ثابت ، وعينين ذاهلتين لم يجرؤ على تحديهما . وكان ان قرر حينئذ المخاطرة بالحديث كرجل لرجل ، لمدة خمس دقائق ، مع الدخيل المشؤوم الذي لا يذكر انه رآه يوماً ، والذي وقف في طريق حياته في ساعة نحس . وبمحض العادة تناول المسدس قبل ان يخرج ، لكنه حرص على حمله مخبأ تحت القميص .

لم يكن فلورينتينو اريثا قد استرد انفاسه عندما قاده لورينثو دائا من ذراعه عبر ساحة الكتدرائية حتى رواق الاقواس في مقهى الباروكية ، ودعاه للجلوس على المصطبة الخارجية ، لم يكن هناك زبائن اخرون في مثل هذا الوقت ، وكانت امرأة زنجية تمسح بلاط الصالة الضخمة ذات الواجهات الزجاجية المتشظية والمغبرة ، حيث كانت الكراسي ما تزال موضوعة بالمقلوب فوق الطاولات الرخامية . كان فلورينتينو اريثا قد رأى لورينثو دائا مرات كثيرة وهو يلعب ويشرب النبيذ هناك مع استوريي السوق العام ، الذين يشتبكون في مشادات صارخة حول حروب مزمنة اخرى غير حروبنا . ولقد تساءل مرات كثيرة ، وهو يعي قدرية الحب ، كيف سيكون لقاؤه الذي سيتم عاجلاً أم آجلاً مع هذا الرجل ، ذلك اللقاء الذي لن تحول دونه قوة انسانية ، لانه مكتوب منذ الازل في قدر كل منهما . لقد رأى في الأمر شجاراً لامتكافئاً ، ليس لأن فيرمينا دائا لم تكن قد نبهته في رسائلها إلى طبع ابيها العاصف فحسب ، بل لانه هو نفسه لاحظ من قبل ان له عينين غاضبتين حتى حين يقهقه ضاحكاً

على طاولة اللعب . ان كل ما فيه كان محصلة شراسة : كرشه اللئيم ، وطريقته المفخّمة في الكلام ، وساقاه اللتان كساقي وشَق ، ويداه الغليظتان مع البنصر المختنق بفص الياقوت الشيء اللين الوحيد فيه ، والذي تنبه اليه فلورينتينو اريثا مذ رآه يمشي لأول مرة ، هو مشيته الغزلانية التي كمشية ابنته . ومع ذلك ، فانه لم يره فظاً كما كان يظن حين اشار له إلى الكرسي ليجلس ، ثم انه استرد انفاسه عندما دعاه لتناول كأس من خمرة لها طعم اليانسون . لم يكن فلورينتينو اريثا قد تناول مشروباً كهذا في الثامنة صباحاً من قبل لكنه وافق شاكراً ، لانه كان بحاجة اليه وبسرعة .

لم يتأخر لورينثو دائا فعلاً اكثر من خمس دقائق في عرض غرضه ، وفعل ذلك بصراحة مجردة جعلت الأمر يختلط على فلورينتينو اريثا . لقد وضع نصب عينيه ، منذ وفاة زوجته ، هدفاً وحيداً ، هو ان يجعل من ابنته سيدة عظيمة . وكان السبيل الى ذلك طويلاً وشائكاً بالنسبة لتاجر بغال لا يحسن القراءة ولا الكتابة ، رغم ان سمعته كلص مواشي لم تكن مؤكدة بنفس درجة انتشارها في مقاطعة سان خوان دي لا ثييناغا . أشعل سيجار بغّال ، وقال متحسراً : «الشيء الوحيد الذي اعتبره أسوأ من اعتلال الصحة هو سوء السمعة» . ومع ذلك ـ قال ـ ان سر ثروته الحقيقي هو انه لم يكن يجعل اي من بغاله يعمل بقدر ما كان هو نفسه يعمل وبتصميمه ، حتى في اكثر ازمان الحرب مرارة ، حين كانت القرى تستيقظ متحولة إلى ركام والحقول إلى هشيم . ورغم أن ابنته لم تطلع يوماً على مخطط مصيرها ، إلا انها كانت تتصرف كشريكة متحمسة .. فهي ذكية ومنظمة ، حتى انها علمت اباها القراءة بالسرعة نفسها التي تعلمت هي بها . وفي الثانية عشرة من عمرها كانت مطلعة على الواقع بشكل يؤهلها لتسيير شؤون البيت دون حاجة للعمة اسكولاستيكا . وتنهد : «انها بغلة ذهبية» . وعندما انهت ابنته المدرسة الابتدائية ، بدرجات قصوى في كل المواد ، مع تنويه شرف في حفل الختام ، أدرك ان بلدة سان خوان دي لا ثييناغا أصبحت ضيقة على احلامه . عندئذ صفى ممتلكاته من الاراضي والمواشي ، وانتقل بقوى جديدة وسبعين ألف بيزو ذهباً إلى هذه المدينة المنهارة ، ذات الامجاد المنخورة ، ولكن حيث المجال متاح لامرأة جميلة ومؤدبة على الطريقة القديمة ان تولد من جديد بزواج محظوظ . لقد كان اقتحام فلورينتينو اريثا حياتها عائقاً غير منتظر في ذلك المخطط الصارم . «انني آت لا تقدم منك برجاء» . قال لورينثو دائا . ثم بلل عقب السيجار بخمر اليانسون ، وأخذ منه نفساً بلا دخان ، واختتم بصوت مغموم :

ـ ابتعد عن طريقنا .

كان فلورينتينو اريثا قد اصغى اليه وهو يتناول رشفات من خمر اليانسون ، منذهلاً من اكتشاف ماضي فيرمينا دائا ، حتى انه لم يسأل نفسه عما سيقوله عندما سيتكلم . وما انْ حان

وقت الكلام حتى انتبه الى ان تقرير مصيره متوقف على ما سيقوله. فسأل:

-هل كلمتها ؟

قال لورينثو داثا:

-هذا ليس من اختصاصك.

وقال فلورينتينو اريثا:

- نني أسأل لانني أرى انها هي التي عليها ان تقرر.

فقال لورينثو داثا:

-لا شيء من هذا. فالقضية قضية رجال ويجب تسويتها بين الرجال.

أصبحت نبرة صوته متوعدة، والتفت زبون على طاولة مجاورة لينظر اليهما. وتكلم فلورينتينو اريثا بأخفض صوت ممكن ولكن بأقصى ما لديه من تصميم. قال:

- لا استطيع اجابتك على اية حال دون ان أعرف رأيها، لان ذلك سيكون خيانة.

حينئذ شد لورينثو داثا نفسه إلى الوراء في المقعد، بأجفانه المحمرة والرطبة، ودارت عينه اليسرى في محجرها لتستقر مائلة إلى الخارج. ثم خفض صوته أيضاً وقال:

- لا تجبرني على قتلك باطلاق النار عليك.

أحس فلورينتينو اريثا ان احشاءه قد امتلأت برغوة باردة، لكن صوته لم يرتعش، لانه أحس ايضاً بانه ملهم بوحي من الروح القدس. فقال ويده على صدره:

- اطلق.

كان على لورينثو داثا ان ينظر اليه مجانبة، كالببغاوات، ليراه بالعين المائلة. ولم ينطق الكلمات الثلاث، وانما بدا وكأنها يبصقها مقطعاً مقطعاً:

- يا - ابن - العا - هر - ة !

في ذلك الاسبوع بالذات حمل ابنته إلى رحلة النسيان. لم يقدم لها أي تفسير، سوى انه اقتحم غرفة نومها وشاربه ملوث بالغضب المختلط مع السيجار الممضوغ، وأمرها بان تجهز أمتعة السفر. سألته إلى أين سيذهبان، فأجابها: «الى الموت». وحاولت وهي فزعة من هذا الجواب الذي يشابه الحقيقة كثيراً، مواجهته بشجاعة الأيام الماضية، لكنه نزع حزامه ذا الابزيم النحاسي، وطواه على قبضته، ثم هوى على الطاولة بجلدة دوت في ارجاء البيت كأنها طلقة بندقية. فعرفت فيرمينا داثا جيداً مدى قوتها ومناسبتها، وهكذا أعدت أمتعة السفر ولفتها ببساطين وارجوحة نوم، ووضعت كل ملابسها في صندوقين كبيرين، وهي متأكدة من انها رحلة بلا عودة. وقبل ان ترتدي ثيابها، حبست نفسها في الحمام وتمكنت من كتابة رسالة

وداع قصيرة إلى فلورينتينو اريثا على ورقة منتزعة من مجموعة الورق الصحي. ثم قصت ضفيرتها كاملة من مستوى الرقبة بمقص تقليم، ولفتها في علبة من المخمل مطرزة بخيوط ذهبية وبعثت بها مع الرسالة.

كانت رحلة مجنونة. مرحلتها الأولى وحدها استغرقت أحد عشر يوماً برفقة قافلة بغالي الانديز، على صهوة بغلة فوق جروف سلسلة سييرا نيفادا الوعرة، وقد امضوها وهم مخدرون بالشموس اللاهبة أو مبللين بأمطار تشرين الافقية، وبأنفاس مخدرة في معظم الاحيان بفعل الروائح المنومة التي تنبعث من الجروف. وفي اليوم الثالث للرحلة انزلقت بغلة هائجة بسبب ذباب الدواب وهوت مع فارسها ساحبة معها مجموعة البغال المربوطة واياها كلها، واستمرت زعقة الرجل وعنقوده المؤلف من سبع بهائم مربوطة إلى بعضها تتردد في الأودية والوهاد لعدة ساعات بعد الكارثة، وبقيت تطن في ذاكرة فيرمينا داثا لسنوات وسنوات. لقد هوى كل متاعها مع البغال، ولكنها في لحظة القرون التي استغرقها السقوط إلى ان انطفأت صرخة البغال في القاع، لم تفكر بالرجل المسكين الذي مات ولا بالقافلة التي تمزقت، وانما كانت ترى الكارثة في ان بغلتها التي تمتطيها لم تكن مربوطة مع البغال الاخرى.

كانت المرة الأولى التي تمتطي فيها صهوة بهيمة، ولكن رعب الرحلة وآلامها التي لا حصر لها ماكانت لتبدو لها بهذه المرارة لولا قلقها من كونها لن ترى فلورينتينو اريثا بعد اليوم ولن تتعزى برسائله. منذ بدء الرحلة لم تبادل والدها الحديث، وهذا كان قلقاً بدوره حتى انه لم يكلمها إلا في بعض الامور الضرورية، او اكتفى بارسال بعض التعليمات اليها مع البغالين. وحين كان الحظ يحالفهم، يجدون نزلاً على الطريق يُقدم فيه طعام جبلي ترفض تناوله، ويؤجرونهم فراشاً متسخاً بعرق وبول زنخين. أما غالبية الليالي فكانوا يقضونها في اكواخ هنود، أو في منامات عامة في اهواء الطلق مشادة على حافة الدروب في صفوف من اكواخ خشبية ذات سقوف من النخيل، حيث لكل من يصل الحق بالبقاء حتى الفجر. لم تتمكن فيرمينا داثا من النوم ليلة كاملة وهي تتعرق خوفاً، وتحس في الظلام بحركة المسافرين الرشيقة وهم يربطون دوابهم في الاكواخ الخشبية ويعلقون اراجيح نومهم حيث يستطيعون.

في المساء، وعند وصول أول المسافرين، يكون المكان بهياً وهادئاً، لكنه يتحول عند الصباح إلى ساحة مهرجان، مليئة بحشد من أراجيح النوم المعلقة على عدة مستويات، وهنود اروراكو الجبليين الذين ينامون مقرفصين، وتململ الماعز المربوطة وصخب ديكة المصارعة في صناديقها الفرعونية، والصمت اللاهث للكلاب الجبلية المدربة على عدم النباح خوفاً من مخاطر الحرب. لقد كانت تلك الاجواء مألوفة للورينثو داثا، الذي عمل تاجراً في المنطقة

خلال نصف حياته، وكان يلتقي بشكل شبه دائم مع اصدقاء قدماء عند الفجر. أما بالنسبة للابنة فكان احتضاراً مؤبداً. ان نتانة شحنات السمك المملح، مضافة إلى فقدانها الشهية شوقاً، توصلا إلى اتلاف عادة الأكل لديها، واذا كان لم يصبها مسّ من اليأس فلأنها وجدت الفرج دوماً في ذكرى فلورنتينو اريثا. ولم تشك للحظة في ان تلك الأرض هي أرض النسيان.

وكان هناك رعب دائم آخر هو رعب الحرب. فمنذ بدء الرحلة جرى حديث عن خطر الالتقاء بالدوريات المنتشرة، وقد دربهم البغالون على مختلف الاساليب لمعرفة الجهة التي ينتمون اليها ليتصرفوا بما يتلاءم مع ذلك. وكثيراً ما كانوا يلتقون بارسالية جند على الخيول، تحت امرة ضابط، تقوم بحملة تجنيد اجباري لمجندين جدد وذلك بربطهم كالعجول واجبارهم على الجري. ومثقلة بكل هذه المخاوف، نسيت فيرمينا داثا ذاك الذي بدا لها اكثر خرافية من الامور الوشيكة الحدوث، إلى ان اختطفت دورية بلا انتماء معروف مسافرين من القافلة في احدى الليالي وشنقتهما على شجرة كابلي على بعد فرسخ واحد من المنامة. لم يكن للورينثو داثا أية علاقة بهما، لكنه انزلهما عن الانشوطة ودفنهما كمسيحيين وذلك بدافع الحمد لكونه لم يلق المصير نفسه. وكان هذا أقل ما يمكن عمله. لان المهاجمين كانو قد ايقظوه وفوهة بندقية مصوبة إلى بطنه، واقترب منه قائد بأسمال، وجهه مطلي بسناج أسود، وصوب نحوه ضوء مصباح يدوي، وسأله ان كان ليبرالياً أم محافظاً. فقال لورنيثو داثا:

- لست هذا ولا ذاك. أنا مواطن اسباني.

فقال الكومندان:

- يا لك من محظوظ! - ثم ودعه رافعاً يده إلى أعلى وقال: - فليحيا الملك!

بعد يومين من ذلك نزلوا إلى السهل الساطع، حيث تقبع بلدة فاييدوبار السعيدة. كانت تقام هناك مصارعات ديكة في الباحات، وتُعزف موسيقى اوكورديون في المنعطفات، كما كان هناك فرسان يمتطون صهوات جياد كريمة، وألعاب نارية وقرع نواقيس. وكانوا قد نصبوا كذلك قلعة من الاسهم النارية. لكن فيرمينا داثا لم تعر اي اهتمام حتى للجوقة الموسيقية. استضافهما الخال ليسيماكو سانتشيث، شقيق امها، الذي خرج لاستقبالهم على الطريق الرئيسي ترافقة كوكبة من الفرسان الاقارب الشباب الذين يمتطون بهائم من أفضل سلالات المقاطعة، وقادوهما عبر شوارع البلدة وسط فرقعة الألعاب النارية. كان البيت في نطاق الساحة الكبرى، إلى جوار الكنيسة الاستعمارية المرممة عدة مرات، والتي كانت أشبه بمستودع محصولات بحجراتها الفسيحة والمظلمة، وممرها العابق برائحة عصير قصب السكر الدافىء، مقابل بستان أشجار مثمرة.

وما ان ترجلوا في الاصطبلات، حتى امتلأت صالات الاستقبال باعداد من الاقارب المجهولين الذين كانوا يزعجون فيرمينا داثا بسيل عواطفهم الذي لا يطاق، لانها كانت عاجزة عن حب أحد آخر في هذا العالم، اضافة إلى تسلخ بشرتها من امتطائها البهيمة، وانهاكها من النعاس والاسهال، والشيء الوحيد الذي كانت تتشوق اليه هو مكان منعزل وهادىء لتبكي فيه. وكانت ابنة خالها هيلديبراندا، التي تكبرها بسنتين ولها كبر ياؤها الامبراطوري ذاته، هي الوحيدة التي تفهمت حالتها مذ رأتها لأول مرة، لانها كانت تكتوي كذلك بجمرات حب متهور. رافقتها عند المساء إلى حجرة نومها التي أعدتها لتتقاسمها وإياها، ولم تستطع ان تفهم كيف ما زالت على قيد الحياة بهذه القروح النارية في اليتيها. وبمساعدة أمها، وهي امرأة عذبة وشبيهة جداً بزوجها حتى ليبدوان وكأنهما توأمان، أعدت لها مغطساً وخففت لها حرارة الحمى بكمادات من ازهار جبلية، فيما كانت اسهم قلعة البارود النارية تهز أعماق البيت.

انصرف الزوار عند منتصف الليل، وتفرقت الحفلة العامة إلى جذوات مبعثرة، وأعارت ابنة الخال هيلديبراندا قميص نوم قطنياً أبيض لفيرمينا داثا، وساعدتها على الاستلقاء في سرير ذي شراشف نظيفة ووسادة ريش أوحت لها بغتة برعب السعادة المفاجىء. وعندما بقيتا وحدهما أخيراً، أغلقت الباب بالمزلاج وأخرجت من تحت فرشة سريرها مغلفاً مختوماً بشعار التلغراف الوطني. وكانت رؤية تعابير المكر المشعة من وجه ابنة الخال تبرعم في ذاكرة قلب فيرمينا داثا رائحة أزهار الياسمين البيضاء، قبل ان تفتت باسنانها خاتم الشمع الاحمر وتبقى حتى الفجر متخبطة في بركة دموع البرقيات الاحدى عشر الخارقة.

وعرفت حينئذ كل شيء. فقبل الانطلاق بالرحلة، ارتكب لورينثو داثا خطيئة اخطار حماه ليسيماكو سانتشيث بالتلغراف، وبعث هذا بدوره الخبر إلى حلقة أقربائه الواسعة والمعقدة، المنتشرة في عدد كبير من قرى ودروب المقاطعة. وهكذا لم يتمكن فلورينتينو اريثا من معرفة طريق السفر كله فقط، وانما أقام كذلك جمعية واسعة من عاملي التلغراف لاقتفاء اثار فيرمينا داثا حتى آخر قرية في كابو دي لافيلا. وقد اتاح له ذلك الاحتفاظ باتصال مكثف معها منذ وصولها إلى فييدوبار، حيث اقامت ثلاثة شهور، وحتى نهاية الرحلة في ريوهاتشا، بعد سنة ونصف، حين هُيء للورينثو داثا ان ابنته قد نسيت، وقرر الرجوع إلى بيته. ربما لم يكن هو نفسه واعياً مدى تراخي مراقبته، في انشغاله بمداهنات انسبائه السياسيين، الذين تخلوا بعد كل هذه السنين عن اوهامهم القبلية وقبلوه بقلب مفتوح كواحد منهم. لقد كانت زيارة مصالحة متأخرة، رغم ان الغرض الاساسي منها لم يكن كذلك. كانت عائلة فيرمينا سانتشيث قد عارضت فعلاً، وبكل اصرار زواجها من مهاجر بلا اصل، متوحش وكثير

الكلام، كان يمضي عابراً في كل الاماكن، بتجارة بغال شبقة تبدو شديدة البساطة حتى ليُشك في نطاقتها. كان لوريثو داثا يلعب لعبة كبيرة، لان محبوبته هي افضل فتاة في عائلة تقليدية من عائلات المنطقة: قبيلة متشابكة من النساء الباسلات والرجال طيبي القلب وسهلي الزناد، الذين يهتجون إلى حد الجنون في مسائل الشرف. ومع ذلك، فقد أصرت فيرمينا سانتشيث بكبر بانها على قرار حبها الاعمى، وتزوجت منه رغم غضب العائلة بسرعة كبيرة واسرار كثيرة، فبدت وكأنها لم تفعل ذلك بدافع الحب وانما لاخفاء زلة مبكرة بغطاء مقدس.

وبعد خمس وعشرين سنة، دون ان ينتبه لوريثو داثا إلى ان عناده أمام حب ابنته هو تكرار لتاريخه المعيب ذاته، كان يشكو بلواه أمام أحمائه الذي عارضوا زواجه، كما شكا هؤلاء في حينهم أمام أحمائهم. ولكن الوقت الذي كان يضيعه في حسراته كانت ابنته تكسبه في غرامياتها. وفيما هو منصرف إلى خصي العجول وترويض البغال في أرض احمائه السعيدة، كانت هي تمضي مُفلتة الأعنة مع فوج من بنات خؤولتها تقودهن هيلدبير اندا سانتشيث، أجملهن وأسرعهن في تقديم الخدمات، والتي كانت تكتفي بنظرات مختلسة في حبها الطائش لرجل يكبرها بعشرين سنة، متزوج وأب لأولاد.

بعد اقامة طويلة في فاييدوبار، تابعا الرحلة عبر المرتفعات المجاورة لسلسلة الجبال، مجتازين مروجاً مزهرة وتلالاً حالمة، واستقبلوا في جميع القرى بمثل الاستقبال الاول، مع الموسيقى والمفرقعات، وبنات خؤولة جديدات متواطئات ورسائل منتظمة في مكاتب التلغراف. وسرعان ما تنبهت فيرمينا داثا إلى ان وصولها إلى فاييدوبار لم يكن مختلفاً، وان جميع أيام الاسبوع في تلك المقاطعة الغنية كانت تعاش وكأنها أيام أعياد. كان الضيوف ينامون حيث يفاجئهم الليل ويأكلون حيث يصادفهم الجوع، فالبيوت مشرعة الابواب فيها دائماً ارجوحة نوم معلقة وطبيخ به بضع قطع من اللحم يغلي على موقد، تحسباً لقدوم أحد قبل وصول برقية الاعلان عن مجيئه، كما كان يحدث بشكل شبه دائم. رافقت هيلدبير اندا سانتشيث ابنة عمتها في بقية مراحل الرحلة. وقادتها بسعادة عبر تشابكات الدم حتى منابع اصلها. وتعرفت فيرمينا داثا على ذاتها، وأحست بانها سيدة نفسها للمرة الأولى، احست بانها مرافقة ومحمية، وان رئتيها ممتلئتان بهواء حرية أعاد لها الطمأنينة وارادة الحياة. وبقيت تذكر تلك الرحلة حتى سنواتها الاخيرة، وتشعر بها اقرب عهداً في ذاكرتها، مع صحوات الحنين المضللة.

وفي احدى الليالي رجعت من جولتها اليومية مصعوقة لاكتشافها أن المرء لايمكن ان يكون سعيداً دون الحب فحسب بل وضده أيضاً. وقد افزعها هذا الاكتشاف لان احدى بنات

اخوالها استمعت مصادفة الى حديث بين ابائهن ولوريثو داثا، لمح هذا الاخير خلاله إلى موافقته على فكرة زواج ابنته من وارث ثروة كليوفاس موسكوتي الخيالية. كانت فيرمينا داثا تعرفه. فقد رأته وهو يذرع الساحات على متن جياده الكريمة، ذات السروج الفاخرة التي تبدو وكأنها زينة القداس، وكان أنيقاً وجذاباً، له رموش حالمة تجعل الاحجار تتنهد، لكنها قارنته في ذاكرتها بفلورينتينو اريثا الجالس تحت أشجار اللوز في الحديقة، بائساً وضامراً، مع كتاب الاشعار في حضنه، ولم تجد في قلبها ظلاً من الشك.

كانت هيلدبير اندا سانتشيث تمضي في تلك الايام مهووسة بالاحلام بعد زيارة قامت بها لعرافة اذهلتها دقة بصيرتها. فذهبت فيرمينا داثا، المرتعبة من نوايا أبيها، لاستشارتها كذلك. وقد أنبأها الورق بانه لا وجود في مستقبلها لأي عائق أمام زواج طويل وسعيد. وقد اعادت لها تلك النبوءة انفسها، لانها لم تكن تتصور بانه يمكن لمصير موفق إلى هذا الحد ان يكون مع رجل آخر سوى الذي تحبه. وتولت حينئذ مقاليد اختيارها وهي سعيدة بهذا اليقين. وهكذا لم تعد مراسلاتها مع فلورينتينو اريثا مجرد كونشيرتو من النوايا والوعود الخيالية، بل عادت لتصبح منهجية وعملية، واكثر زخماً من كل ما سبق: حددا المواعيد، أقرا الاساليب، ورهنا حياتهما بقرارهما المشترك في الزواج دون الرجوع إلى أحد، في اي مكان وبأية طريقة، وذلك فور لقائهما من جديد. كانت فيرمينا داثا تعتبر هذا الوعد حاسماً لدرجة انه في الليلة التي سمح لها فيها ابوها حضور الحفلة الراقصة الأولى كراشدة، في بلدة فونسيكا، لم تر انه من الوقار القبول بالذهاب دون موافقة خطيبها. وفي تلك الليلة كان فلورينتينو اريثا يلعب الورق مع لوتاريو توغوت في فندق العابرين، عندما اخبروه بانه مطلوب في اتصال برقي مستعجل.

كان المتصل هو موظف التلغراف في فونسيكا. الذي عشق سبع محطات وسيطة لتطلب فيرمينا داثا الاذن بحضور الحفلة الراقصة. ولكنها حين حصلت على التصريح، لم تكتف بمجرد الرد الايجابي، وانما طلبت ما يثبت ان فلورينتينو اريثا هو من يضرب مفاتيح الارسال في الطرف الآخر من الخط فعلاً. فصاغ هو مذهول اكثر منه مغازلاً عبارة تحدد هويته: قل لها أنني اقسم بالربة المتوجة. وهكذا تعرفت فيرمينا داثا على الاشارة، وبقيت في حفلتها الراقصة الأولى كراشدة حتى الساعة السابعة صباحاً، عندما اصبح عليها الذهاب لاستبدال ملابسها كي لا تصل متأخرة إلى القداس.

كانت تملك حينئذ في قاع صندوقها كمية من الرسائل والبرقيات اكبر من تلك التي انتزعها ابوها منها. وكانت قد تعلمت ان تسلك سلوك النساء المتزوجات. وقد اعتبر لوريثو داثا تلك التبدلات التي طرأت على سلوكها بانها شفاء لا شك فيه من أوهام شبابها أوصلها اليه

والزمن، لكنه لم يطرح عليها ابدا مشروع الزواج المتفق عليه. وأصبحت علاقتها بابيها إكثر انسياباً، ضمن التحفظات الشكلية التي فرضتها منذ طردالعمة اسكولاستيكا، مما أتاح لهما نوعاً من التعايش المريح ما كان لأحد ان يشك بانه ليس قائماً على المحبة.

وكان ان قرر فلورينتينو اريثا في هذه الفترة اخبار فيرمينا داثا في رسائله بانه مشغول في الكشف لها عن كنز السفينة الغارقة. كان يفعل ذلك حقاً، ولقد خطر له الأمر كنفحة الهام، مساء منير بينما البحر يبدو وكأنه مرصوف بالألمنيوم، لكميات السمك الطافية على سطح الماء بفعل ازهار البارباسكو. كانت جميع طيور السماء قد هاجت للمجزرة، بينما تولى الصيادون أمر افزاعها بالمجاذيف كي لا تشاركهم ثمار تلك المعجزة المحرمة. فاستخدام البارباسكو، الذي يخدر الاسماك فقط، كان محظوراً في القانون منذ العهد الاستعماري، لكنه بقي سائداً ومستخدماً في وضح النهار بين صيادي الكاريبي، الى ان استبدل بالديناميت. ان احدى متع فلورينتينو اريثا، اثناء رحلة فيرمينا داثا، كانت مشاهدة الصيادين، من فوق حائل الامواج، وهم يملؤون زوارقهم بالشباك المترعة بالاسماك المخدرة. كما كانت هناك عصبة صبيان يسبحون كأسماك القرش ويطلبون من الفضوليين القاء قطع نقدية لاستخراجها من قاع الماء. انهم اولئك الذين ينطلقون سابحين للغرض ذاته للقاء عابرات المحيطات، والذين كُتبت عنهم مقالات وتحقيقات رحالة كثيرة في الولايات المتحدة واوروبا، لمهارتهم في فن الغوص. لقد كان فلورينتينو اريثا يعرفهم منذ الازل، بل وقبل ان يعرف الحب، ولكن لم يخطر بباله يوماً انهم قادرون على استخراج كنز السفينة سباحة. وقد فكر بذلك مساء هذا اليوم، ومنذ يوم الأحد التالي وحتى عودة فيرمينا داثا، بعد حوالي سنة، كان لديه سبب آخر للهذيان.

لقد فُتن اوكليديس، أحد الصبية السباحين، كثيراً كما فتن هو بفكرة الاستكشاف تحت الماء، بعد محادثة لم تتجاوز عشر الدقائق. لم يكشف له فلورينتينو اريثا عن حقيقة مشروعه، بينما استفسر منه بالتفصيل عن امكاناته كغواص وبحار. سأله ان كان يستطيع النزول دون هواء الى عمق عشرين متراً، وقال له اوكليديس نعم. سأله ان كان في وضع يؤهله لقيادة زورق صياد بمفرده في عرض البحر وسط عاصفة، دون أية ادوات اخرى سوى غريزته، وقال له اوكليديس اي نعم. سأله ان كان قادراً على تحديد موقع معين على بعد ستة عشر ميلاً بحرياً إلى الشمال الشرقي من الجزيرة الكبرى في ارخبيل سوتافينتو، وقال له اوكليديس اي نعم. سأله ان كان قادراً على الابحار ليلاً والتوجه مهتدياً بالنجوم، وقال له اوكليديس اي نعم. سأله ان كان مستعداً للعمل معه بالاجر نفسه الذي يدفعه له الصيادون لقاء مساعدتهم في الصيد، وقال له اوكليديس اي نعم، انما مع اضافة خمس ريالات في أيام

الآحاد. سأله ان كان يحسن حماية نفسه من اسماك القرش، وقال له اوكليديس اي نعم، وان لديه تعاويذ سحرية لافزاعها. سأله ان كان قادراً على كتمان السر حتى ولو وضعوه على آلات التعذيب في قصر محكمة التفتيش، وقال له اوكليديس اي نعم. لم يقل له «لا» عن أي شيء أذن، وكان يعرف كيف يقول نعم بخصوصية لا يرقى اليها الشك. ثم عرض عليه اخيراً حساب النفقات: استئجار الزورق، استئجار المجداف، استئجار عدة صيد حتى لا يرتاب أحد بحقيقة رحلاتهم. اضافة إلى حمل الطعام، وقربة ماء عذب، ومصباح زيت، وحزمة شموع من الشحم، وقرن صياد لطلب النجدة في حالة الطواريء.

كان عمره حوالى اثني عشر عاماً، وكان سريعاً وماكراً، ومتحدثاً لا يمل الكلام، له جسد خنكليس يبدو وكأنه قد تكوّن ليمر بخفة من نافذة سفينة. وكانت عوامل الجو قد دبغت بشرته بحيث اصبح مستحيلاً معرفة لونها الاصلي، وهذا جعل عينيه الواسعتين الصفراوين تبدوان اكثر بريقاً. وقرر فلورينتينو اريثا على الفور بانه الشريك المناسب لمغامرة بمثل هذا الحجم، وانطلقا في تلك المغامرة يوم الأحد التالي دون أية اجراءات اخرى.

ابحرا من مرفأ الصيادين عند الفجر، ممونين جيداً وعاقدين العزم اكثر. كان اوكليديس شبه عار، لا يكاد يغطي جسده سوى المئزر الذي يضعه دوماً حول وسطه. وكان فلورينتينو اريثا يرتدي السترة الرسمية، والقبعة القاتمة، وجزمته الصقيلة، ويضع ربطة الشاعر حول عنقه، ويحمل الكتاب الذي سيشغل نفسه به اثناء الرحلة إلى الجزر. ومنذ يوم الأحد الأول انتبه الى ان اوكليديس كان بحاراً حاذقاً كما هو غواص ماهر، وان له قدرة مذهلة على الحديث عن طبيعة البحر وخردة الحديد التي على الشاطىء. فهو قادر على سرد حكاية كل هيكل من هياكل السفن التي عاث فيها الصدأ بأدق تفاصيلها التي لا ترد على بال، ويعرف عمر كل جسم طافٍ ومنشأ كل حطام، وعدد حلقات السلسلة التي كان الاسبان يغلقون بها الخليج. وخشية ان يكون قد عرف كذلك الغرض من هذه الحملة، وجه اليه فلورينتينو اريثا بعض الاسئلة المراوغة، وعرف من خلالها انه لا تراود اوكليديس أية شكوك حول مسألة السفينة الغارقة.

مذ سمع حكاية الكنز لاول مرة في فندق العابرين، جمع فلورنتينواريثاكل ما امكنه من معلومات عن دروب ذلك النوع من السفن. وعرف ان السفينه سان خوسيه ليست السفينه الوحيده في الأعماق المرجانيه. لقد كانت بالفعل سفينة القيادة في اسطول تييرا فيرميه، وقد جاءت هنا بعد شهر ايار من عام ١٧٠٨، قادمة من مهرجان بورتوبيلو الخرافي في بناما، حيث حملت جزءاً من كنزها: ثلاثمئة صندوق من فضة البير ووفير اكروث ومئة وعشر لآلىء جمعت واحصيت في جزيرة كونتا دورا. وخلال اقامتها التي دامت لاكثر من شهر هنا، كانت ايامها

وليالية عبارة عن مهرجانات شعبية، قاموا بتحميلها ببقية الكنز المرصود لاخراج مملكة اسبانيا من الفقر: مئة وستة عشر صندوقاً من زمرد موثو وسوموندوكو، وثلاثين مليون مسكوكة ذهبية.

كان اسطول تيرا فيرميه مؤلفاً مما لا يقل عن اثنتي عشرة سفينة متنوعة الاحجام. وقد أبحر من هذا الميناء في رحلة يحميها اسطول فرنسي حسن التسليح، لم يستطع رغم ذلك حماية الحملة من مدافع الاسطول الانكليزي الصائبة، بقيادة القمندان كارلوس واغير، الذي كان ينتظر في ارخبيل سوتا فينتو، عند مخرج الخليج. وهكذا لم تكن سان خوسيه هي السفينة الوحيدة الغرقة، مع انه لا وجود لتوثيق دقيق لعدد السفن التي تحطمت وعدد تلك التي استطاعت النجاة من نيران الانكليز. لكن الذي لا شك فيه هو ان سفينة القيادة كانت من السفن الأولى التي غرقت بكامل طاقمها مع قائدها الذي لم يتزحزح من مقصورة القيادة، وانها هي وحدها التي كانت تحمل الشحنة الكبيرة.

لقد تعرف فلورينتينو اريثا على طريق السفن القديمة من خلال رسائل قباطنة السفن في ذلك العصر، وظن بانه حدد مكان الغرق أيضاً. خرجا من الخليج ما بين حصني بركاتشيكا وبعد أربع ساعات من الابحار دخلا في الماء الراكد ما بين جزر الارخبيل، ذلك الماء ذي الأعماق المرجانية، حيث بالامكان امساك اسماك جراد البحر النائمة باليد. كان الهواء خفيفاً والبحر هادئاً وصافياً، حتى ان فلورينتينو اريثا رأى نفسه معكوساً في الماء. وبعد التجديف لمدة ساعتين من الجزيرة الكبرى، وصلا إلى موقع الغرق.

أشار فلورينتينو اريثا المحتقن بالشمس الجهنمية في ملابسه المأتمية على اوكليديس ان يحاول النزول إلى عمق عشرين متراً وجلب أي شيء يجده في القاع. لقد كان الماء صافياً لدرجة انه رآه وهو يتحرك في الأسفل، مثل سمكة قرش متسخة بين أسماك القرش الزرقاء التي تمر إلى جانبه دون ان تمسه. ثم رآه يختفي في عرق مرجاني، وعندما فكر بانه لم يعد لديه أي قدر من الهواء سمع الصوت وراء ظهره. كان اوكليديس واقفاً في القاع ويداه مرفوعتان والماء يغمره حتى خصره. وتابعا البحث على هذا المنوال عن أماكن أعمق، متوجهين دائماً نحو الشمال، ومبحرين فوق أسماك المانتارانا الدافئة، والحباري الهيابة، وورود الظلمات، إلى ان أدرك اوكليديس بانهما يضيعان وقتهما. فقال له:

ـ اذا لم تقل لي ما الذي تريدني ان أجده، فلست أدري كيف سأتمكن من العثور عليه.

لكنه لم يخبره. عندئذ اقترح عليه اوكليديس نزع ملابسه والنزول معه، ولو لمجرد رؤية السماء الاخرى للكون التي في الأعماق المرجانية. لكن فلورينتينو اريثا اعتاد على القول بان الله انما خلق البحر لنراه من النافذة، ولم يحاول يوماً ان يتعلم العوم. بعد ذلك بقليل أصبح المساء غائماً، وصار الهواء رطباً وبارداً، وأظلمت الدنيا بسرعة مما اضطرهما للاسترشاد

بالفنار ليصلا إلى المرفأ. وقبل ان يدخلا الخليج، رأيا عابرة المحيطات الفرنسية تمر قريباً جداً منهما وجميع انوارها مضاءة، كانت ضخمة وبيضاء، وخلفت وراءها أثراً من رائحة لحم طازج مطبوخ وقنبيط يغلي.

لقد أضاعا ثلاثة آحاد على هذا الحال، وكانا سيضيعان جميع أيام الآحاد لو لم يقرر فلورينتينو اريثا مشاركة اوكليديس في سره. فقام هذا عندئذ بتعديل خطة البحث كلها، ومضيا للابحار في القنال القديم الذي كانت تسلكه السفن، والذي كان يبعد اكثر من عشرين فرسخا بحريا إلى الشرق من المكان الذي حدده فلورينتينو اريثا. وقبل انقضاء شهرين، في مساء يوم بحري ماطر، بقي اوكليديس وقتاً طويلاً في القاع، وكان الزورق قد انحرف كثيراً مما جعله يسبح حوالي نصف ساعة للحاق به، حيث ان فلورينتينو اريثا لم يستطع تقريبه بالمجداف. وعندما تمكن من الامساك بالزورق اخيراً، أخرج من فمه قطعتي حلي نسائية وعرضهما باحساس المثابر الفائز.

ان ما رواه حينئذ كان أخاذاً، مما جعل فلورينتينو اريثا يقطع على نفسه عهداً بتعلم السباحة، والغوص إلى حيث يستطيع، ليتأكد من ذلك بعينيه فقط. روى انه توجد في ذلك المكان، وعلى عمق ثمانية عشر متراً فحسب، أعداد من السفن الشراعية القديمة جاثمة بين الصخور المرجانية، وانه يستحيل عليه حصر عددها، وانها موزعة في مجال فسيح لا يحيط به البصر، وروى ان اكثر ما فاجأه هو انه لا يوجد قارب واحد بين القوارب الكثيرة الطافية في الخليج، أحسن حالاً من السفن الغارقة. روى ان هناك عدة سفن شراعية ما زالت أشرعتها في حالة جيدة، وان السفن الغارقة كانت تبدو للنظر في الاعماق كما لو انها غرقت بمكانها وزمانها، حتى انها ما زالت مضاءة بشمس الساعة الحادية عشرة من صباح يوم السبت، التاسع من حزيران، الذي غرقت فيه. وروى، مختنقاً باندفاع خياله، ان أسهل سفينة يمكن تمييزها هي سان خوسيه، التي يبدو اسمها للعيان مكتوباً على مقدمتها بحروف من الذهب، لكنها في الوقت ذاته السفينة التي لحق بها اكبر ضرر من مدافع الانجليز. وروى انه رأى بداخلها أخطبوطاً عمره اكثر من ثلاثة قرون، تخرج ملامسه من فتحات المدافع، وانه قد تضخم كثيراً في صالة الطعام لدرجة ان اخراجه يستوجب تفكيك السفينة. وروى انه رأى جسد قبطان السفينة بزيه الحربي طافياً على جانبه في الحوض المائي المتشكل في مقصورة القيادة، وقال انه اذا كان لم ينزل الى عنابر الكنز فلأن هواء رئتيه لم يكفه لذلك. وها هي الادلة: قرط به زمردة، وميدالية عليها صورة العذراء مع سلسلتها المتآكلة بفعل الاملاح.

هكذا ذكر فلورينتينو اريثا الكنز لأول مرة في رسالة موجهة إلى فيرمينا داثا بعثها اليها في فونسيكا قبل عودتها بقليل. لقد كانت قصة السفينة الغارقة مألوفة لديها، اذ سمعت بها عدة

مرات من لورينثو داثا، الذي أضاع وقتاً ومالاً في محاولة لاقناع مؤسسة غواصين ألمان للتعاون معه في استخراج الكنز الغارق. وكان سيلح على المهمة، لولا ان عدداً من أعضاء أكاديمية التاريخ أقنعوه بان اسطورة السفينة الغارقة ابتدعها أحد حكام استعمرات اللصوص الذي استولى بهذه الوسيلة على ثروات التاج. وكانت فيرمينا داثا تعرف، على اية حال، ان السفينة تجثم على عمق مئتي متر، حيث لا يستطيع كائن بشري الوصول اليها، وليس على عمق عشرين متراً كما يقول فلورينتينو اريثا. لكنها كانت معتادة جداً على شطحاته الشاعرية لدرجة انها احتفلت بمغامرة السفينة على انها واحدة من أكبر شطحات خياله. ولكنها حين توالى تلقيها لرسائل اخرى تتضمن تفاصيل اكثر غرابة، مكتوبة بجدية تضاهي جدية وعوده في الحب، اضطرت للاعتراف امام هيلديبراندا بمخاوفها من ان يكون خطيبها المخبول قد فقد عقله.

كان اوكليديس قد خرج في هذه الايام بأدلة عديدة على اسطورته، بحيث لم تعد القضية هي متابعة اللعب باقراط وخواتم مبعثرة ما بين الصخور المرجانية، وانما تمويل عملية ضخمة لاستخراج الخمسين سفينة مع الثروة البابلية التي تحملها في جوفها. حينئذ حدث ما كان سيحدث عاجلاً أو آجلاً، اذ طلب فلورينتينو اريثا من امه ان تساعده للوصول بمغامرته إلى نهايتها الطبيعية، واكتفت هي بعضّ معدن الحلي باسنانها، والتمعن في الاحجار الزجاجية أمام الضوء لتدرك ان هناك من يتعيش على سذاجة ابنها. وأقسم اوكليديس لفلورينتينو اريثا وهو جاث على ركبتيه انه لا وجود لأية شائبة تشوب أعماله، لكنه اختفى من ميناء الصيادين في يوم الأحد التالي، ثم اختفى نهائياً ولم يعد يظهر في أي مكان.

الشيء الوحيد الذي بقي لفلورينتينو اريثا من كل تلك المغامرة الفاشلة هو ملجأ الهوى في الفنار. كان قد وصل إلى هناك في الزورق مع اوكليديس، في ليلة فاجأتهم فيها العاصفة وهما في عرض البحر، واعتاد منذ ذلك الحين الذهاب في المساء لتبادل الحديث مع عامل الفنار حول عجائب البر والبحر التي لا حصر لها، والتي كان عامل الفنار يعرفها. وكانت تلك بداية صداقة عاشت متجاوزة التبدلات الكثيرة التي طرأت على الدنيا. وتعلم فلورينتينو اريثا هناك تغذية ضوء الفنار بشحنات من الحطب أول الأمر، ثم براميل الزيت، قبل ان تصلنا الطاقة الكهربائية. كما تعلم توجيه الضوء ومضاعفته بالمرايا، وكان يحرس ليل البحر من اعلى [illegible] حين يحول عائق دون قيام عامل الفنار بعمله. فتعلم التعرف على السفن من [illegible] ومن حجم انوارها في الافق، وصار يحس بان شيئاً منها يصله عائداً مع ومضات [illegible]

أما المتعة اثناء النهار فكانت شيئاً آخر، وخصوصاً أيام الآحاد. ففي حي البيريّس حيث كان يعيش اثرياء المدينة القديمة، كان الشاطىء المخصص للنساء مفصولاً عن الشاطىء المخصص للرجال بجدار من الطين؛ شاطىء إلى يمين الفنار وآخر إلى يساره. وقد نصب عامل الفنار منظاراً يمكن بواسطته، وبدفع سنتاڤو واحد، مراقبة شاطىء النساء. ودون ان يعلمن بانهن مراقبات، كانت آنسات المجتمع الراقي يعرضن خير ما لديهن في ملابس الاستحمام ذات الكشاكش الكبيرة مع أحذية خفيفة وقبعات تخفي الاجساد كما ملابس الخروج تقريباً، اضافة إلى كونها أقل جاذبية. وكانت الامهات تقمن بالحراسة من الشاطىء وهن جالسات على كراسي الخيزران الهزازة تحت الشمس بنفس الملابس، وقبعات الريش، والمظلات التي يذهبن بها إلى القداس الكبير، خوفاً من ان يغوي بناتهن رجال الشاطىء المجاور من تحت الماء. والحقيقة انه لم يكن ممكناً من خلال المنظار رؤية أي شيء أكثر اثارة مما يمكن رؤيته في الشارع. لكن زبائن كثيرين كانوا يتهافتون كل يوم أحد متنازعين المنظار لمجرد اللذة التافهة بتذوق ثمار ما هو غريب ومحرم.

وكان فلورينتينو اريثا واحداً منهم، دافعه إلى ذلك الملل اكثر ما هو اللذة، دون ان يكون هذا الدافع الاضافي هو السبب في توطيد صداقته مع عامل الفنار. فالسبب الحقيقي هو انه بعد صدّ فيرمينا داثا، وعندما عاكس حمى الحب المبدد في محاولة لاستبدالة، لم يعش أسعد الساعات في أي مكان آخر سوى الفنار، ولم يجد عزاء أفضل منه لمحنته. كان الفنار مكانه الاثير، حتى انه حاول خلال سنوات اقناع امه أولاً، ثم عمه ليون الثاني عشر، لمساعدته في شرائه. اذ كانت فنارات الكاريبي في ذلك الحين ملكية خاصة، وكان أصحابها يتقاضون حق العبور إلى الميناء بحسب حجم السفينة. فاعتقد فلورينتينو اريثا بانها الوسيلة الشريفة الوحيدة لاداء عمل مناسب إلى جانب الشعر. أما أمه، وعمه أيضاً، فلم تكن لتفكر بشيء من هذا، وعندما أصبح بامكانه شراء الفنار من موارده الخاصة، كانت الفنارات قد انتقلت إلى ملكية الدولة.

ومع ذلك، لم يضع أي من هذه الاحلام سدى. فاسطورة السفينة الغارقة، ثم قصة الفنار فيما بعد، خففت عنه من غياب فيرمينا داثا، وعندما لم يعد يفكر في ذلك كثيراً، جاءه خبر عودتها. وفعلاً، كان لورينثو داثا قد قرر العودة بعد اقامة طويلة في ريوهاتشا. لم يكن الوقت الانسب للسفر في البحر، بسبب رياح كانون الأول الموسمية. فالسفينة الشراعية التاريخية، الوحيدة التي تتجرأ على مثل هذه الرحلة، قد تجد نفسها عند الفجر عائدة إلى المرفأ الذي خرجت منه، مدفوعة برياح معاكسة. وكان هذا ما حدث. كانت فيرمينا داثا قد أمضت ليلة من الاحتضار، متقيئة الصفراء، ومقيدة إلى سرير قمرة تبدو وكأنها مرحاض حانة، لا بسبب

ضيقها الخانق فقط. وانما بسبب النتانة والحر أيضاً. وكانت حركة السفينة عنيفة حتى خيل اليها عدة مرات ان احزمة السرير ستتقطع، وكانت تصلها من سطح المركب نتف من صرخات محزونة تبدو وكأنها صرخات غرقى، وشخير والدها في السرير المجاور، الذي يشبه شخير النمر، كان، عنصراً آخر من مكونات الرعب. وللمرة الأولى منذ ما يقارب الثلاث سنوات، أمضت ليلة كاملة دون أن تفكر لحظة واحدة بفلورينتينو اريثا. بينما كان هو مؤرقاً في ارجوحة النوم في لفناء الخلفي، يحصي الدقائق السرمدية التي تفصله عن موعد عودتها دقيقة فدقيقة. وعند الفجر، توقفت الرياح فجأة، وعاد الهدوء الى البحر، وتنبهت فيرمينا داثا إلى انها قد نامت رغم آلام الدوار، اذ أيقظها صخب سلاسل المرساة. نزعت عنها الاحزمة حينئذ وتطلعت من خلال الطاقة آملة برؤية فلورينتينو اريثا في فوضى الميناء، لكن ما رأته كان عنابر الجمارك بين اشجار النخيل الذهبية بفعل أول أشعة الشمس، ورصيف ميناء ريوهاتشا ذي العوارض الخشبية المنخورة، الذي أبحرت منه السفينة في الليلة الماضية.

انقضت بقية النهار كالحلم في البيت نفسه الذي كانا فيه حتى يوم أمس، يستقبلان الزوار ذاتهم الذين ودعوهم، ويتحدثان معهم في الامور نفسها، وذهلت لاحساسها بانها تعيش للمرة الثانية جزءاً من الحياة كانت قد عاشته. وبعثت تلك الاعادة الامنية للاحداث قشعريرة في فيرمينا داثا لمجرد تفكيرها بان رحلة السفينة ستكون كذلك أيضاً، لان ذكراها كانت تسبب لها الهلع. لكن الاحتمال الآخر الوحيد للعودة إلى البيت هو في قضاء اسبوعين على متن بغلة فوق نتوءات الجبال، وفي ظروف أشد خطورة من المرة الاولى، لان حرباً اهلية جديدة كانت قد نشبت في ولاية كاوكا في جبال الانديز، وأخذت تتسع منتشرة في مقاطعات الكاريبي. وهكذا انطلقت ثانية الى المرفأ في الساعة الثامنة ليلاً، برفقة موكب الأقارب الصاخب نفسه، وبدموع الوداع نفسها، والصرر المتنوعة نفسها التي تضم هدايا اللحظة الاخيرة والتي لا تتسع لها القمرات. وفي لحظة الابحار، ودع رجال العائلة السفينة باطلاق النار في الهواء معاً، فرد عليهم لوريثو داثا من سطح السفينة باطلاق رصاصات مسدسه الخمس. وما لبث قلق فيرمينا داثا ان تبدد سريعاً، لان الريح كانت مواتية طوال الليل، وكانت للبحر رائحة زهور ساعدتها على النوم نوماً هادئاً دون أحزمة الأمان. حلمت بانها ستعود لرؤية فلورينتينو اريثا، وان هذا قد نزع الوجه الذي رأته فيه دوماً، لانه كان قناعاً في الحقيقة، لكن الوجه الحقيقي كان مطابقاً. استيقظت باكراً، مفكرة باحجية الحلم، ووجدت اباها يتناول القهوة مع البراندي في مقصورة القبطان، وقد حرف الكحول عينه، انما بقدر قليل لا يشير إلى وجود شك في العودة.

كانوا يدخلون الميناء، وكانت السفينة تنزلق بصمت عبر متاهة القوارب الشراعية الراسية

في خليج السوق العام، الذي تصل رائحته النتنة إلى عدة فراسخ في البحر، وكان الفجر مشبعاً برذاذ خفيف ما لبث ان تحول إلى وابل غزير. تعرف فلورينتينو اريثا، الذي كان قابعاً على شرفة مكتب التلغراف، على السفينة وهي تعبر خليج لاس انيمس باشرعة أخمدها المطر وترسو مقابل مرفأ السوق. لقد انتظر في اليوم السابق حتى الساعة الحادية عشر صباحاً، عندما عرف من خلال برقية عابرة بتأخر السفينة بسبب الرياح المعاكسة، وعاد للانتظار في ذلك اليوم منذ الساعة الرابعة صباحاً. وتابع الانتظار دون ان يرفع نظره عن الزوارق التي تحمل إلى الشاطىء قلة من المسافرين قرروا النزول الى البر رغم العاصفة. وقد اضطر معظمهم إلى مغادرة الزوارق التي توقفت في منتصف المسافة، والوصول إلى الرصيف متخبطين في الوحل. وفي الساعة الثامنة، بعد انتظار لا طائل منه لتوقف المطر، تقدم حمال زنجي غاطس في الماء حتى وسطه وأنزل فيرمينا داثا عن حافة السفينة وحملها بين ذراعيه حتى الشاطىء، لكنها كانت مبتلة الى الحد الذي لا يستطع معه فلورينتينو اريثا التعرف عليها.

لم تكن هي نفسها تعي كم نضجت خلال الرحلة، إلى ان دخلت البيت المقفل وبدأت على الفور بالعملية البطولية لاعادته صالحاً للمعيشة بمساعدة غالا بلاثيديا، الخادمة الزنجية، التي عادت إلى موقعها السابق كعبدة بمجرد ان أعلموها بالعودة. لم تعد فيرمينا داثا هي الابنة الوحيدة، مدللة ابيها وضحيته في الوقت ذاته، بل أصبحت ربة وسيدة مملكة من الغبار ونسيج العنكبوت لا يمكن انقاذها إلا بقوة حب عصي على الهزيمة. لم تخف، لانها أحست بانها ملهمة بروح صعود كافية لجعلها قادرة على تحريك العالم. وفي ليلة العودة بالذات، وفيما هم يتناولون الشوكولاته مع فطيرة الجبن على طاولة المطبخ، فوضها ابوها السلطات لادارة البيت. وفعل ذلك بطقوس كطقوس عمل قدسي، قائلاً لها:

- اني اسلمك مفاتيح البيت.

تولت المسؤولية بحزم، مع اكمالها السبعة عشر عاماً من العمر، واعية ان كل شبر من الحرية المكتسبة انما حصلت عليه بقدرة الحب وفي اليوم التالي، بعد ليلة من الاحلام الكابوسية، عانت للمرة الأولى كآبة العودة عندما فتحت نافذة الشرفة ورأت من جديد رذاذ الحديقة الحزين، وتمثال البطل مقطوع الرأس، والمقعد الرخامي حيث اعتاد فلورينتينو اريثا الجلوس مع كتاب الاشعار. ما عادت تفكر فيه كخطيب مستحيل، انما كزوجها الذي عليها الارتباط به تماماً. واحست كم كان ثقيلاً الزمن الضائع منذ ذهابها، وكم يكلفها بقاؤها على قيد الحياة من جهد، وكم من الحب يلزمها لتحب رجلها كما يشاء الله. فوجئت بانه ليس في الحديقة، كما كان يفعل في احيان كثيرة غير عابىء بالمطر، وبانها لم تتلق أية إشارة منه بأي

وسيلة، ولا حتى بالايحاء. وفجأة فكرت ان يكون قد مات. لكنها استبعدت فكرة الشؤم في الحال، لانها في احتدام برقيات الأيام الاخيرة، وامام اقتراب موعد العودة، نسيت الاتفاق معه على وسيلة لمتابعة الاتصال عندما تعود.

والحقيقة ان فلورينتينو اريثا كان يظن موقناً بانها لم ترجع بعد، إلى ان أكد له عامل التلغراف في ريوهاتشا بانها قد أبحرت منذ يوم الجمعة في السفينة ذاتها التي لم تصل في اليوم السابق بسبب الرياح غير المواتية. وهكذا أمضى نهاية الاسبوع مترصداً أية علامة حياة في بيتها، وفي مساء يوم الاثنين رأى من خلال النوافذ ضوءاً متنقلاً ما لبث ان انطفأ بعد الساعة التاسعة بقليل في حجرة النوم المطلة على الشرفة. لم ينم تلك الليلة، وطاردته الأشواق الهائجة نفسها التي أقلقت ليالي حبه الأولى. نهضت ترانسيتو اريثا مع الديوك الأولى، مذعورة لان ابنها قد خرج الى الفناء ولم يعد للدخول منذ منتصف الليل، ولكنها لم تجده في البيت. لقد مضى يتسكع هائماً على حائل الامواج، وراح يلقي أشعار الحب على الريح، ويبكي طرباً حتى مطلع الفجر. وفي الثامنة صباحاً كان يجلس تحت قناطر مقهى الباروكية، وقد أفقده السهر توازنه، محاولاً ابتداع طريقة يوصل بها إلى فيرمينا دازا ترحيبه بقدومها، حين أحس بهزة مزلزلة تمزق احشاءه.

كانت هي، تجتاز ساحة الكتدرائية برفقة غالا بلاثيديا، التي كانت تحمل سلال المشتريات، وللمرة الأولى رآها تسير بملابس غير الزي المدرسي، وتبدو أطول مما كانت عليه عند ذهابها، واكثر كمالاً ونضوجاً، وبجمال مصفى بمقدرة امرأة واعية. كانت ضفيرتها قد نمت مجدداً، لكنها لم تكن تسدلها على ظهرها وانما تتنكبها فوق كتفها الايسر، ولقد نزع عنها ذلك التغيير الطفيف كل اثر للطفولة. وقف فلورينتينو اريثا في مكانه مصعوقاً، الى ان اجتازت مخلوقة الحلم الساحة دون ان ترفع بصرها عن طريقها. ولكن القوة التي جمدته هي نفسها التي دفعته بعد ذلك للاسراع في اثرها حين انعطفت عند زاوية الكتدرائية وضاعت في زحمة السوق التي تبعث على الصمم.

لاحقها دون ان تراه، مستكشفاً الحركات اليومية، والنضج المبكر، وظرافة اكثر الكائنات محبة في هذا العالم، والتي كان يراها لأول مرة وهي منطلقة على سجيتها. اذهلته السهولة التي تشق بها طريقها وسط الجموع. فبينما كانت غالا بلاثيديا تصطدم بالناس، وسلالها تتشابك وتضطر للركض كي لا تضيع اثرها، كانت هي تبحر في فوضى الشارع بجو خاص بها وزمن مختلف، دون ان تصطدم بأحد، وكأنها خفاش في الظلام. لقد خرجت مرات كثيرة إلى السوق من قبل مع العمة اسكولاستيكا، ولكن المشتريات كانت ضئيلة القيمة، فوالدها كان يتولى شخصياً مسؤولية تزويد البيت بالمؤن، وليس بالاثاث والمأكولات فحسب، بل وبالملابس النسائية ايضاً. ولهذا كان خروجها الأول ذاك مغامرة اخاذة تمثلتها احلامها كطفلة.

لم تعر اهتماماً لتسرع المشعوذين الذين كانو يقدمون لها اكسيراً للحب الابدي، ولا لرجاء المتسولين المستلقين في الدهاليز بقروحهم المدخنة، ولا للهندي المزيف الذي يحاول بيعها تمساحاً أليفاً. لقد قامت بجولة واسعة ومفصلة، دون مسار مدروس، وبتوقفات لا سبب لها سوى متعة عدم التسرع في روح الاشياء. ودخلت في كل زقاق يوجد فيه شيء للبيع، وفي كل مكان وجدت شيئاً غذى رغبتها في الحياة. تمتعت بحفيف أزهار الاقمشة في الصناديق الكبيرة المزخرفة، ولفت نفسها بالحرير المزين بالرسوم، وضحكت لضحكتها ذاتها وهي ترى نفسها متشحة بالملابس الشعبية مع مشط زينة ومروحة مزينة برسوم أزهار مقابل مرآة كبيرة في محلات السلك الذهبي. وفي دكان البحريات رفعت غطاء برميل يحتوي اسماك رنكة في ماء مملح ذكرها بليالي الشمال الشرقي، وهي طفلة صغيرة، في سان خوان دي لاثييناغا. وقدموا لها سجقاً من اليكانتي لتتذوقه فكان له طعم عرق السوس، فاشترت قطعتين منه لفطور يوم سبت، كما اشترت بضع شرائح من سمك القد وقطرميز كشمش مع الخمر. وفي دكان بهارات، ومن اجل التمتع بالرائحة فقط، عصرت بين كفيها أوراق مريمية وصعتر، واشترت حفنة قرنفل ذي رائحة، وحفنة يانسون مطحون، وحفنات اخرى من الزنجبيل والعرعر. وخرجت مبللة بدموع الضحك لكثرة ماعطست من روائح فلفل كايينا. وفي بوتيك الفرنسي، وبينما هي تشتري صابون روتير وعطر البان الهندي، وضعوا لها وراء أذنها لمسة من عطر كان شائع الاستعمال في باريس يومها، واهدوها حبة مزيلة للرائحة تستعمل بعد التدخين.

كانت تلعب لعبة الشراء حقاً، لكنها كانت تشتري ماهي بحاجة اليه فعلاً بلا مواربة، وبمقدرة لا تسمح بالظن بانها انما تفعل ذلك للمرة الأولى، فقدكانت مدركة انها لاتشتري لنفسها فقط وانما له كذلك. اثنتي عشرة ياردة من الكتان كشراشف لمائدتهما معاً، ونسيجاً قصبياً لشراشف سرير الزفاف ولتهتكهما معاً عند الصباح، ومن كل صنف ماهو اكثر روعة ليتمتعا به معاً في بيت الحب. كانت تطلب تخفيضاً وتتقن طلبه، وتجادل بظرافة ووقار حتى تحصل على أفضل الاصناف، وتدفع بمسكوكات ذهبية يقوم الباعة بتجريبها للاستمتاع فقط بسماع رنينها فوق مرمر الطاولة.

كان فلورينتينو اريثا يراقبها مبهوراً، ويلاحقها مقطوع الانفاس، فاصطدم عدة مرات بسلال الخادمة التي كانت ترد بابتسامة على اعتذاراته، وقد مرت هي نفسها قريباً جداً منه حتى انه شم نسيم رائحتها، واذا كانت لم تره حينئذ فليس لعجزها عن ذلك وانما لشموخ

طريقتها في المشي. كانت تبدو له جميلة جداً، فاتنة جداً، ومختلفة جداً عن الناس العاديين، بحيث لم يدرك كيف لا يختل الاخرون مثله بصناجات كعبيها على بلاط الشارع، ولا تضطرب قلوبهم بهواء تنهدات كشكشها، ولا يصاب العالم كله بالجنون حباً بحركة ضفيرتها، وطيران يديها، ولجين ضحكتها. لم يضيع حركة واحدة من حركاتها، ولا علامة واحدة من علامات طبعها، لكنه لم يكن ليجرؤ على الاقتراب منها خوفاً من ان يُفسد السحر. ولكن عندما ولجت زحمة زقاق الكتبة العموميين تنبه إلى انه يخاطر بتبديد الفرصة التي تشوق لها خلال سنوات.

كانت فيرمينا داثا تشاطر زميلاتها في المدرسة الفكرة الغريبة السائدة بان زقاق الكتبة العموميين هو مكان ضياع، وأرض محرمة، على الآنسات المحترمات طبعاً. كان عبارة عن رواق ذي قناطر مقابل ميدان صغير حيث تتوقف عربات الاجرة وطنابر الشحن التي تجرها الحمير، وحيث تصبح التجارة الشعبية اكثر زخماً وصخباً. اسمه موروث من أيام المستعمرة، فهناك كان يجلس منذ ذلك الحين الكتبة المكفهرون ذوو السترة الكتانية والاكمام المنفصلة التي تصل حتى المرفقين، والذين كانوا يكتبون جميع انواع الوثائق بأسعار بائسة: مذكرات اتهام أو استرحام، واستدعاءات قانونية، وبطاقات تهنئة أو تعزية، ورسائل حب في اي سن كان. وليسوا هم، بكل تأكيد، سبب سوء السمعة التي لحقت بذلك السوق الصاخب، وانما الباعة المتجولون المحدثون الذين كانوا يقدمون من تحت طاولاتهم جميع انواع الحيل الغامضة التي تصل تهريباً في السفن القادمة من اوربا، ابتداء من بطاقات صور الداعرات والمراهم المهيجة، وحتى واقيات الحمل الكتلانية الشهيرة ذات الاعراف العظائية التي تتحرك أثناء العملية، أو تلك التي تنتهي بازهار تتفتح اوراقها حسب مشيئة المنتفع. لقد ولجت فيرمينا داثا، عديمة الخبرة في الشوارع، ذلك الزقاق دون ان تنتبه إلى اين هي ماضية، باحثة عن ظل يخفف عنها وطأة شمس الساعة الحادية عشرة.

غرقت في ضجة ماسحي الاحذية وبائعي العصافير، عارضي الكتب الرخيصة ومشعوذي التداري ومناديات الحلوى اللواتي يعلن بصراخ اعلى من الضجة عن حلوى نوكادا الاناناس للصبايا، وحلوى جوز الهند للحمقى، وحلوى السكر بالعجين لميكائيلا. ولكنها كانت تسير غير مبالية بالصخب، فتنها على الفور وراق كان يقدم عرضاً لانواع من حبر الكتابة السحري: حبر أحمر له لون الدم، وحبر ذو بريق حزين لبطاقات التعزية، وحبر فسفوري لقراءته في الظلام، وحبر خفي ينكشف ببريق الضوء. كانت تريد من كل الانواع لتعب مع فلورينتينو اريثا، وتذهله باستنباطها، ولكنها بعد عدة تجارب قررت شراء زجاجة حبر ذهبي. بعد ذلك مضت إلى بائعات الحلوى الجالسات وراء صناديقهن الزجاجية

الكبيرة، واشترت ست قطع حلوى من كل صنف، مشيرة الى ماتريد باصبعها من وراء الزجاج لانها لم تكن لتتمكن من اسماعهن ما تريده بسبب الضوضاء: ست قطع من شعر الملاك، وستة قوالب صغيرة من حلوى الحليب، وستة مكعبات سمسمية، وست قطع من كعكة اليكة، وستة اقراص من الشوكلاته، وست قطع من البسكويت المحشي، وست من لقمة الملكة، وستة من هذا وستة من ذاك، وستة من كل شيء، وكانت تضع كل ذلك في سلال الخادمة بظرافة لا تقاوم، غير عابئة بسحابة الذباب السوداء الهائجة فوق المربى، وغير مبالية بالتعفن المتواصل، وغير مبالية برائحة العرق الزنخ الذي يلمع في الحر القاتل. ايقظتها من هذا الخدر زنجية سعيدة تضع خرقة ملونة على رأسها المكور والبديع، قدمت لها قطعة اناناس مغروسة في رأس سكين جزار. فتناولتها ودستها كاملة في فمها، تذوقتها، وكانت تتذوقها ونظرها شارد في الجموع، عندما سمرتها اختلاجة اضطراب في مكانها. فوراءها. وقريباً جداً من اذنها بحيث لم يسمع في الضجة أحد سواها الصوت الذي قال لها:

ـ ليس هذا بالمكان المناسب لربة متوجة.

التفتت ورأت على بعد شبر من عينيها العينين الاخريين الجامدتين، والوجه الأزرق الضارب إلى السواد، والشفتين المتصلبتين خوفاً، تماماً كما رأتها في زحمة صلاة منتصف الليل عندما كان قريباً منها لأول مرة، ولكنها لم تشعر بهيجان الحب كما في المرة السابقة وانما بهاوية خيبة الأمل. وبلحظة واحدة انكشف لها حجم الورطة التي اوقعت نفسها فيها، وتساءلت مذعورة كيف استطاعت ان تحتضن طوال هذا الوقت وبكل هذه القسوة حرقة قلب كتلك. وبالكاد استطاعت ان تفكر: «رباه، ياللرجل البائس!». ابتسم فلورينتينو اريثا، وحاول ان يقول شيئاً، حاول اللحاق بها لكنها محته من حياتها بحركة من يدها قائلة له:

ـ لا، ارجوك، انس كل شيء.

في مساء ذلك اليوم، وبينما والدها ينام قيلولته، بعثت اليه مع غالا بلاثيديا رسالة في سطرين: عندما رأيتك اليوم، ادركت ان ماكان بيننا ليس الا وهماً. وحملت اليه الخادمة كذلك برقياته، واشعاره، وازهار كاميلياه الجافة، وطلبت منه ان يعيد الرسائل والهدايا التي بعثتها اليه: كتاب صلوات العمة اسكولاستيكا، واوراق النباتات المجففة، والسنتمتر المربع من مسوح سان بيدرو كلافير، وميداليات القديسين، وضفيرتها وهي في الخامسة عشرة مع شريط الزي المدرسي الحريري. فكتب في الايام التالية، وهو على حافة الجنون، عدداً كبيراً من الرسائل البائسة، وحاصر الخادمة لتحمل تلك الرسائل، لكن هذه نفذت التعليمات الصارمة بعدم استلام اي شيء سوى الهدايا المعادة. واصرت على ذلك بحسم جعل

فلورنتينو اريثا يعيد كل شيء ما عدا الضفيرة، التي لم يشأ اعادتها ما لم تستقبله فيرمينا داثا شخصياً ليتحدثا معاً ولو للحظة واحدة. ولم يتمكن من ذلك. ونزلت ترانسيتو اريثا عن كبريائها، خشية ان يتخذ ابنها قراراً قاتلاً، وطلبت من فيرمينا داثا ان تمنحها خمس دقائق من وقتها، فاستقبلتها للحظة واحدة في دهليز البيت، واقفة، دون ان تدعوها إلى الدخول، وبلا ذرة وهن. بعد يومين من ذلك، ومع انتهاء مشادة مع أمه، نزع فلورينتينو اريثا عن جدار غرفة نومه العلبة الزجاجية المغبرة حيث كان يعلق الضفيرة كأنها ايقونة مقدسة، واعادتها ترانسيتو اريثا بنفسها في علبة المخمل المطرزة بخيوط ذهبية. ولم تتح لفلورينتينو اريثا الفرصة أبداً لرؤية فيرمينا داثا على انفراد، ولا التحدث اليها اثناء لقاءاتهما الكثيرة في حياتيهما الطويلتين، إلا بعد انقضاء إحدى وخمسين سنة وتسعة شهور واربعة أيام، عندما كرر لها يمين الوفاء الابدي والحب الدائم في ليلتها الأولى كأرملة.

كان خوفينال اوربينو، العازب المرغوب وهو في الثامنة والعشرين، قد عاد من اقامة طويلة في باريس، حيث اجرى دراسات عليا في الطب والجراحة، منذ نزوله إلى البر قدم أدلة قاهرة على انه لم يضيع لحظة واحدة من وقته. لقد رجع اكثر تجملاً مما كان عليه عند ذهابه، واكثر تحكماً بطبائعه، ولم يكن أي من زملاء جيله ليبدو اكثر صرامة منه واكثر معرفة بعلومه، كما لم يكن اي منهم ليرقص خيراً منه على الموسيقى الدارجة اويعزف راجلاً أفضل منه على البيانو. وكانت فتيات وسطه الاجتماعي، المفتونات بمحاسنه الشخصية والمتيقنات من ثروته العائلية، يقترعن سراً ليلعبن أيهن ستبقى معه، وكان هو يلعب كذلك للبقاء معهن، لكنه تمكن من الحفاظ على نفسه في حالة الملاحة، صحيحاً ومغرياً، إلى ان سقط دون مقاومة أمام مفاتن فيرمينا داثا العامية.

كان يحب ان يقول ان ذلك الحب هو ثمرة تشخيص طبي خاطىء. ولم يكن ليصدق بان ذلك قد حدث، خصوصاً في تلك الفترة من حياته، حين كان كل احتياطيه من الهوى مصباً على مصير مدينته، التي كثيراً ما قال عنها دون تردد انه لامثيل لها في العالم. ففي باريس، وفيما هو يتنزه ممسكاً بذراع خطيبة عرضية في خريف متأخر، كان يرى انه من المستحيل تخيل سعادة اكثر صفاء من سعادة تلك الامسيات الذهبية الباريسية، المختلطة برائحة حبات الكستناء الجبلية فوق مواقد الجمر، وأنغام الاكورديونات الخافتة، والعشاق الذين لا يرتوون من قبلات متصلة لاتنتهي على الشرفات المفتوحة، ورغم ذلك، فقد قال هو نفسه، ويده على قلبه، انه غير مستعد لاستبدال هذا كله بلحظة واحدة من لحظات موطنه الكاريبي في نيسان. كان ما يزال شاباً لا يعرف ان ذاكرة القلب تمحو كل الذكريات السيئة وتضخم